يوليوس فوتشيك

ketab4pdf.blogspot.com

تحت أعواد المشنقة

تقديم

المفهوم البطولي للحياة !

في غمرة حياة عادية مشدودة الى تطلعات الشباب الرومانتيكية . توقفت لاول مرة في حياتي اتطلع من حولي بحيرة غامضة بحثا عن مغزى حياة تستغرقنا فيها الهموم العابرة . . وبومها وجدت طريقي الى صفوف الحزب الشيوعي .

واحتضنتني المعاني الجديدة لحياة مناضل شيوعي ، بما تنطوي عليه من آمال مشرقة ، وما تنذر به من حرمانات واهوال . . .

ولم يكن الانتماء يومذاك سوى اختيار الطريق . . .

وظل التعميد الثوري .

وظل الايمان العميق .

ظل الثبات ، سر الاستمرار . والبطولة ، سر الانبهار بالحياة حد الشهادة . . .

وتتواصل التطلعات الرومانتيكية الاولى مع الفعل الجديد الواعد ، وتختلط المفاهيم ، ومن بين ركام تقاليد الحياة الماضية وعاداتها ، وقيمها وهمومها تنمو وتتفتح تقاليد وعادات وقيم وهموم جديدة ، تنمو وتتفتح حياة شيوعية . . .

ومع التفتح والنمو ، تنمو التساؤلات وتكبر . . .

ومن بين كل الاسئلة الكبيرة ، تظل البطولة الثورية ، البطولة حد التضحية بالحياة ، اكبر الاسئلة . . .

واقرأ يوليوس فوجيك اول مرة فاهتز من الاعماق ، وتختلط تطلعاتي الرومانتيكية باختياري الجديد ، وتستقر «همهاتي» على معنى جديد . انني مدين لفوجيك بأثمن الاسرار ، سر الاعماق البعيدة للثورى الانسان ، التي سبرها بكل المحبة التي تليق بأنسان حقيقي ، بثوري اصيل . . . ببطل شيوعي ، حتى حينما يبحث في اعماق خائن عن اسباب سقوطه . . . !

وهاانذا اسمح لنفسي بقراءة جديدة . لمأثرة فوجيك الاخيرة التي ودع بها الحياة . الاوراق الاخيرة التي كتبها في زنزانة الموت بسجن بانكراك النازي . الاوراق التي كتب لها ان تعيش وترى النور لترسم لأجيال من الشيوعيين والثوريين طريق النضال والبطولة .

ان قراءتي هذه ، انما هي محاولة للتعبير عن الوفاء والواجب ، للمعنى الذي انطوت عليه اوراق فوجيك الاخيرة **«تحت اعواد المشنقة»** . .

الاختيار . .

في عام **١٩٢١** انضم يوليوس فوجيك الى الحزب الشيوعي .

ولم يكن هذا الاختيار نقله مفاجئة في حياة فوجيك ، فقد بدأ التفكير كمكافح ديمقراطي ثوري ، بدفعه الادراك الى ان العالم **«ليس ظمآنا للجمال والحقيقة فحسب ، بل ان هناك في العالم اطفالا يتضورون جوعا وتطلق عليهم النيران وتقتل فيه النساء في الحوادث في المصانع .»**

وكان الصبي (يولا) ابن عامل المخرطة والعضو المحترف في مسرح سميخوف ، وهو المصنع الذي يعمل فيه ، مسرحيا **«معجزة»** أثار تمثيله وهو في التاسعة من عمره ، مشاعر عميقة وهو يندمج في دور **«طفل عادل»** . وقد اكتسب يوليوس فوجيك من نشاطه المسرحي الذي مثل فيه طيلة عشر سنوات ، ادوار الاطفال ، طلاقة لغته وطبيعيتها ، وهي التي ميزت كتاباته ، بالاضافة الى خبرة **«المناخ المسرحي»** التي اعانته على ادراك انه

«لكي يكون لأي فكر حقيقي الاثر الضروري ، ولكي يمكن ادراكه ، يجب ان يقدم بلا شكليات وكلمات جوفاء لا ضرورة لها» .

ومكنته خبرته المسرحية من اتقان فن العمل الثوري السري ، فن التنكر والتخفي . وايهام العدو وتضليله .

ويترعرع الصبي الموهوب في محيط ابيه البروليتاري ، ويتطلع بعين مفكرة ، ملتقطا خيوط الالم التي تضيق الخناق على الاسرة البروليتارية الكبيرة المتزاحمة في مصانع شكودا . وتستيقظ في اعماقه مكامن الغضب الاولى .

ومع نحيب النساء وغضب العمال وبؤس اطفالهم ، تتشكل ملامح وعيه ، احساسه بالعدل ، وشجاعته ، صدقه ، حبه اللامحدود للعمل ، جوهر انسانيته وبطولته .

ان الصبي الواعي المفكر يبدأ البحث عن مصادر تشكيل اتجاهاته الاخلاقية ، والابداعية فينكب على التراث الانساني والبطولي لشعبه ، ويقرأ مابين العام السادس عشر والعشرين من عمره اكثر من مائتي مؤلف موليا اهتماما خاصا للكتاب الكلاسيكيين في الادب

التشيكوسلوفاكي والادب العالمي . كان وهو يقرأ بأمعان يعي ان قراءاته ، انما هي مصدر عمله اللاحق ، واداة فهم العالم المحيط به .

يقرأ فوجيك اعمال تولستوي ورولان وفرانس وزولا وديكنز وتشرينشفسكي وماركس ولينين ، انه يقرأ ويفكر ، ويدون مقتطفات مما يقرأ ويؤشر ملاحظاته الشخصية ، فهو شديد الحرص على التفكير المستقل . ولكن فوجيك لا تستهويه القراءة المتأملة ، الحالمة ، معزولا عما يدور حوله . وانما يتواصل وعي القراءة فيه ، بوعي الفعل ، وعي العمل الثوري . فينغمر في العمل ، يشترك في المظاهرات ، يحرض الطلبة على المشاركة في تظاهرات الاول من ايار المجيد ، يلتقي بالعمال ويستمع اليهم بانتباه وتعاطف ومحبة . . ويكتب . . لقد اختار فوجيك الصحافة ، اداة عمله الثوري .

ويفكر . .

ويتجاوز فكره ، بفعله الثوري

فيصبح شيوعيا

ومحرضا من طراز بطولي

ويصبح قائدا

يصبح شهيدا

ذلك انه كان ، منذ البدء ، انسانا . . .

«نحن الشيوعيين نكون جيش الستراتيجي البروليتاري العظيم — جيش الرفيق لينين . وما من شئ اعلى شرفا من ان يكون المرء عضوا في هذا الجيش ، وليس هناك ماهو اعلى مرتبة من عضوية الحزب الذي كان مؤسسه وزعيمه لينين» .

«اننا نحن الشيوعيين نحب الحياة ، ولذلك فاننا لا نتردد في المخاطرة بحياتنا لكي نشعل ونمهد الطريق نحو حياة حقيقية حرة كاملة ومرحة تستحق هذا الاسم . فليست الحياة الذليلة — في القيود والخضوع والاستغلال — حياة ، انما هي وجود بائس لا يليق بالانسان . فهل يقبل الانسان الجدير بهذا الاسم — ، هل يرضى الشيوعي بمثل هذا الوجود ! هل ينحني للمستغلين وسائقي العبيد .

ابدا لن يضن الشيوعيون بأية جهود او تضحيات في كفاحهم من اجل حياة حقيقية وانسانية حقا»

«اننا نحن الشيوعيين نحب الانسان – . فكل ماهو انساني ليس غريبا عنا واننا لنعرف قيمة اقل المسرات الانسانية ونعرف كيف نقدرها – ولذلك فاننا لا نتردد مطلقا في التضحية بمصالحنا الشخصية لكي نفوز بمكان لائق تحت الشمس من اجل انسان حر سليم مرح لا يتعرض لارهاب نظام الفوضى والاستغلال ، سواء كان ذلك بسبب فظائع الحرب او بسبب البطالة» .

«اننا نحن الشيوعيين نحب الحرية ، ولذلك فاننا لا نتردد لحظة واحدة في اخضاع انفسنا طوعا لنظام الحزب الدقيق . للنظام العسكري لجيش الرفيق لينين ، وذلك لكي نحقق الحرية الوحيدة الجديرة بهذا الاسم : حرية البشرية كلها ، فحرية قليل من الافراد – حرية السرقة لفريق من الناس ، وحرية الموت جوعا للاخرين ليست حرية بل انها على العكس اذلال للجميع . فهل يرضى الشيوعي بمثل هذه الحالة ، هل يكتفي بجانب شخصي من هذه الحرية ؟ ابدا . ولذلك فاننا نحن الشيوعيين لا نضن بأية جهود او تضحيات في الصراع من اجل حرية حقيقية ، حرية تتزايد دائما ، حرية للجميع»

«اننا نحن الشيوعيين نحب العمل الخلاق ونحب النمو البناء الذي يشكل مستقبل البشرية ولذلك فاننا لا نتردد لحظة واحدة في تدمير العقبات – والعقبات فقط – التي تعترض طريق القوى الخلاقة العظيمة للانسان . . . ان هناك الالوف ، بل مئات الالوف من الموهوبين الذين يستطيعون مضاعفة الحضارة الانسانية وتحسين التنظيم الانساني ودفع التكنولوجيا الانسانية – الوف ، بل ومئات الالوف من امثال هؤلاء الموهوبين تضيع مواهبهم هباء . لذلك فأن الشيوعي لا يضن بجهد او تضحية في النضال من اجل تحقيق نظام نجد فيه كافة القوى الخلاقة في البشرية وكل فرد فيها مجالا وتطويرا كاملا» .

«اننا نحن الشيوعيين نحب السلام ولذلك فنحن نكافح» .

ان فوجيك تشكيل رائع للمناضل الذي اراده في «**وصاياه العشر الشيوعية**» التي صاغها قبل ثلاثة اشهر من اعتقاله . انه من معدن خالص ، معدن انساني ! ! المعدن الذي صيغ منه كل الابطال والشهداء منذ فجر التأريخ الانساني . انه **شقيق سبارتاكوس . وعمار بن ياسر . وليبكنخت . وروزا لوكسمبورغ . وفهد . وشهدي عطية . وخسرو روزبه . واليندي . وزويا . وديمتروف** . وتتجلى في حياة فوجيك مثلما في موته ، بطولة الاستشهاد ، فالفعل الانساني ، مهما كان صغيرا ، مهما كان جزئيا ، مادام يصب في مجرى التغيير التأريخي ، ويتناسب مع التكوين الاخلاقي ، مع وعي الانسان الفاعل ، انما هو شكل للبطولة . وفي وقت ما ، ترحف الافعال الصغيرة في مد جارف يغسل الارض والزمن من عفونة القديم البالي ، تتجاوز هذه الافعال حد البطولة الى الشهادة .

هكذا كان ادولف كولينسكي ، سجان «**بانكراك**» الذي وفر لفوجيك القلم والورق وهرب اوراقه الاخيرة ! بزة سجان ، قلم ، قبضة من الاوراق تتسلل الى زنزانة مسيجة بموت يومي على مدى شهور ، انه فعل صغير ، الى الدرجة التي يخشى فيها فوجيك عليه من النسيان ! فيذكر ببطولته ، مثلما يذكر ببطولة الاخرين في السجن ، وفي غرفة ٤٠٠ ، حريصا على الايحاء بحد الشهادة في افعالهم الثانوية . وهنا تتجلى بطولة الاستشهاد في حياة فوجيك .

ان الحياة عند فوجيك تكتسب ملامحها من اصالتها ، فالانسان يولد باكيا ، ولكنه سرعان ماينساب مع خاطر الطفولة الازلي ، الفرح ، فيبتسم ويضحك ، ثم يتعلم اصطناع الابتسامة والضحك فيتشوه ! ! ولكن فوجيك يبتسم داميا ، يبتسم بأيماءة مشعة ، وهو يودع زوجته امام الجلادين في غرفة الموت وهي تنفي معرفتها بزوجها المدمى المسور بالموت ، وفاء لعهد نضالي . .

هاكم الفرح الانساني الاصيل . هاكم الغزل الآسر . خذوه من قلب فوجيك وهو يحتضن حبيبته ، زوجته ، التي لم تحن قضيتها المشتركة لم تضعف ، لم تبع سعادة نضالها بحياة ذليلة .

«الحبيبة . لقد برت بوعدها من انها لن تعترف ابدا بانها تعرفني . . . «اقتادوها بعيدا . لقد ودعتها بالطف نظرة تمكنت عليها . ولكن لعلها لم تكن نظرة لطيفة ابدا . انى لي ان اعلم . » ! !

ان هذه الاصالة في ممارسة خاطر الطفولة الازلي . الفرح ، عند البطل وهو امام الجلاد ، هي ماميزت شخصية يوليوس فوجيك منذ درج في ازقة احياء العمال . ومع انها كانت اصالة عفوية في عمر الطفولة والصبا ، الا انها تبلورت وتماسكت مع تبلور وتماسك وعيه .

ان عشرات الدراسات عن حياة فوجيك ، كرست ذكراه كثوري اصيل ، يؤشر لانسان المستقبل . طفل موهوب ، صبي واع مفكر ، صادق ، شجاع . جريئ . وفي . عاشق . محب للعمل . وقبل كل شيئ ، محب للناس . وهو في هذا الحب يتجلى انسانيا الى ابعد الحدود . ويتبدى ذلك في وصفه لجلاديه وسجانيه . فهو حريص على كشف القوى التي قادتهم الى مصائرهم . كشف الفوارق الجزئية في سلوك كل واحد منهم . ولم يكن فوجيك هذا فحسب . ان انسانيته لم تكن لتكتمل لو لم يكن متفائلا ، ضاحكا ، . **«ان الضحك ينطوي على قوة»** . كان فوجيك **«يضحك في اسوأ ظروف الحياة لانه كان يؤمن بصدق الشيوعية ، ولم يكن يشك في اقتناعه بها .»** وقد كان هذا الايمان مصدر فرحه الدائم ، مصدر بطولته .

«ليس هناك عذر للذين ادركوا الفكرة وتخلوا عنها بعد ذلك . ان من يعرف اين هو الشر لا يحق له ان يخطئ . ولا يجوز له ان يخون نفسه ، لانه سوف يخون الآخرين . «وعندما يقرر المرء موقفه مع او ضد ، ومتى تقرر ذلك فعليه ان يقف وراء يقينه حتى النهاية» .

لقد تذكرت وانا اقرأ يوليوس فوجيك ، وابحث في حياته عن سر البطولة ومغزاها العميق ، تذكرت حديثا شجيا ناجاني به ، هامسا ، احد قادة حزبنا ، عن حياة الثوري ، عن معاناته وحرماناته ، وانه ليصعب علي ان انسى كلماته عن البطولة :

«ان البطولة بالنسبة للثوري لا تتجسد فيما يستطيع التحدث به ، التعبير عنه . وانما تكمن البطولة في عشرات الاشياء الصغيرة ، في المعاناة المطمورة في ضمير الثوري ، في تلك الاشياء التي لا يسمح لها ان تفصح عن نفسها ، في تلك الاشياء التي ، حتى ، قد تبدو سخيفة بالنسبة لحياة عادية .» ! !

وكم هي مثل هذه الاشياء في حياة الثوري ، كم هي التفاصيل العادية الصغيرة التي تلهب حياة الثوري وتعذبه بصمت ؟ . .

وهنا تنطلق فكرة ، او ربما شرارة محرقة ، تُرى متى يسقط البطل . . ؟ ؟ هل السقوط الثوري مثل ارتطام بجدار ، هكذا مرة واحدة ؟ ! . . .

التآكل . . . .

ان الثوري ، مثل اي كائن انساني ينمو ، وهو لا ينمو في الفراغ ولا يبدأ من اللاشئ ، بل يتفاعل في المجتمع ويتحول فيه ، وحينما يبدل ولاءه ويتحول الى منتم ملتزم بتيار التأريخ ، تيار التقدم ، يفقد شيئا مما فيه ، يفقد ولاءه للقيم القديمة . وهذه هي بدايات التحول كلها . ولكنه لا يفقد جذورها الكامنة ، ولا يفقد قوة العادة ، يظل في مكان ما من اعماقه اسير بقاياها التي يظل يتعامل ، في **«المجتمع»** ، مع رموزها ومؤسساتها . وتبدأ المرحلة الحاسمة ، مرحلة التعميد الثوري فيتحول الانتماء الى وظيفة تبلور الوعي ، تكامل تشكله وتبدأ عملية الوعي بالنفاذ الى الاعماق البعيدة ، تتحول الى ايمان . والايمان حد للبطولة وللشهادة . . **«واذا كان هناك مايمكن التضحية به للقضية فانه الحياة وليس الشرف .»** ولكن العمل الثوري يمكن ان يتحول في مجرى الصراع بين القديم ، برموزه ومؤسساته ، وبين الجديد النامي ، لدى هذا المناضل او ذاك ، الى مجرد عادة ، و**«العادة»** لا تصمد امام الموت ، وربما لا تصمد ، بحكم التآكل حتى امام حكه ! لقد سقط في ظروف تأريخية متباينة في قسوتها ، مناضلون مجربون ، خبرتهم الحركة الثورية في محن قاسية ، ولكنهم انهاروا امام **«خراعة»** نظام ! لان بعضهم كانوا مجرد منتمين والبعض الاخر لم يتعمد ، تآكل داخليا في مجرى الصراع الضاري ، لم يقاوم اغراءات القديم البالي ، بحكم احتفاظ هذا القديم ، على سطح المجتمع ، بمظاهر السيادة ، محميا بسيف الجلاد .

الانهيار . . الخيانة

ان الانهيار كظاهرة ، تقترن بالهجمات الارهابية المباغتة ، بالارهاب الفاشي الذي ، يلجأ الى اسلوب التصفية الجسدية كأداة لتصفية الفكر ، تصفية العقيدة ، وادواتها الثورية ، احزابها السياسية .

وقد شهد التأريخ الانساني اساليب واشكال فظيعة في التصفيات الجسدية ، وفي الحرب النفسية لخلق اجواء الانهيار العام امام قوى التقدم الانساني . وتتوجه مثل هذه الهجمات الى قاعدة جماهيرية عريضة ، وتستهدف خلق اوسع بلبلة فكرية ، سياسية ، مستخدمة جو الرعب

العام . جو الانكماش والانحسار المؤقت بين صفوف اولئك الذين لم يتعمدوا بعد . لم يكتمل ايمانهم ووعيهم . لأيهامهم بان «قضيتهم» ليست سوى سراب . سوى يقين زائف . زائل . ولكن حتى هذه الهجمات على كثافتها وبطشها لا يمكن ان تضعف ايمان الثوري . بل انها سرعان ماتفقد قدرتها الشمولية بحكم الاستمرار وبحكم استيقاظ مكامن الغضب الجماهيري . استيقاظ الوعي العام . فتتكيف الجماهير لمقاومتها .

واخطر مايواجه المناضل الثوري في مثل هذه الظروف . ظروف الانكسار العام . الاحساس بالعزلة . الانسحاب الى الداخل وغياب الشعور بالتواصل مع الجماعة . مع الحزب . ان التآكل الداخلي في مثل هذه الحالة . يكتسب بعدا آخر . انه يتكثف بفعل الاغتراب وينخر في اعماق المناضل فيحوله الى مجرد «ذات فردية» تنشد الخلاص . ولكن اي خلاص . ! ! لقد ظللت اتساءل مرات عديدة ازاء كل حالة من حالات السقوط الكبيرة التي واجهت مناضلين اشداء . ترى اية محنة هذه التي تدفع انسانا مناضلا اختار شرف النضال بمحض ارادته ووعيه واكتنز رصيدا من شرف هذا النضال زين عقودا من عمره . بل كل عمره . ولم يخلف في هذا العمر مكانا صالحا للمتعة سوى الاكل واحلام اليقظة ! اية محنة تدفع به الى الخيانة ؟ ؟ ؟

والتقي بفوجيك في سجن بانكراك . زنزانة . او كما يرغب هو ان يسميها (غرفة ٤٠٠) فينزع مني حيرتي الى الابد . ويكشف لي ولك سر هذه المحنة . متمثلا في سقوط «هيريك المناضل الذي لم يرهب الرصاص وهو يقاتل على الجبهة الاسبانية . والذي لم تثنه التجربة «القاسية» في معسكر اعتقال بفرنسا . كيف وهن امام عصى الجستابو وانهار لكي «ينقذ جلده» ؟ ؟ . . «اي شجاعة مزيفة هذه التي تكفي حفنة عصي لتمحوها . . ! شجاعة مزيفة كأيمانه» .

ولكن كيف ينهار مثل هذا المناضل . كيف تحولت شجاعته «المجربة» في ظروف الموت ايضا الى شجاعة زائفة ؟ ؟

«لقد كان وهو وسط الاخرين . حين كان محاطا بالرفاق الذين يفكرون مثله كان قويا لانه كان يفكر بهم . اما الان وهو معزول . وحيد . يضغط عليه العدو بشدة فقد انهارت كل مقاومة لديه . لقد اضاع كل شيء لانه اخذ يفكر بنفسه وضحى برفاقه لينقذ جلده» .

«لقد تحول الى جبان ومن جبان الى . . خائن . . » .

والخائن كائن متفسخ ، يشم رائحة عفونته من الداخل . حتى حينما يبدو للآخرين انه يشعر بالنظافة لانه يكون قد تعلم المقارنة . ولانه يتوهم الخلاص وهو يخون ، واحيانا يتوهم انه يستطيع توظيف رصيد تطهره القديم ، ولربما يذهب الى ابعد من ذلك ، انه يوظف مصادر معرفته فيفلسف خيانته ! ولكنه يسقط مثل اية جثة متعفنة فوق ركام من الخيبة ، قبل ان يتلمس طاقة لسانه على استعادة النطق بايجديته الجديدة ، اذ عليه ان يتعلم الولاء من جديد ، فيرتطم باول جدار ، يرتطم بجلاده ! لقد تحول الى كم مهمل ، فيثير اشمئزاز جلاده ، بعد ان كان يثير في نفسه الخوف ! ! والجلاد لا يعبث ، ولكنه ينتقم من ضحيته ، يسترد منه حساب خوفه القديم بعد ان يكتشف ضحيته ، يكتشف فيه نفسه ، مجرد جبان ! ويكون الاوان قد فات !

لقد تسنى لي ان استمع الى شهادات عدد ممن سقطوا ، ولا بد لي ان المح الى ان بعض حالات السقوط تبحث لنفسها عن الرحمة . ولست ادري كيف يمكن تمييزها بدقة ، ربما تشبه بعض هذه الحالات القتل في لحظة لوثه ، او القتل الخطأ او القتل بلا سابق تخطيط ، القتل مع الندم !

ان بعضا من هؤلاء تمرد على سقوطه ، وتحدى جلاديه ، في لحظة اكتشاف الهاوية ، ولكنه كان قد تحول في نظر هؤلاء الجلادين الى كيس للرماية !

الجبان لا يكتفي بسقوطه ، بل يتحول الى معسكر العدو . يتحول الى اداة لتخريب الحزب ، اداة لتخريب الحركة الثورية .

مات اغلبهم ، وان ظلوا احياء باجسادهم . . . اذ تحولوا الى «مجرد اشكال» .

«الجبان يخسر اكثر من حياته نفسها . فها هو قد ضاع وتخلى عن الجيش المجيد وكسب احتقار اقذر الاعداء . وحتى وان كان حيا ، فانه ماعاد حيا ، لانه قد طرد نفسه من الجماعة . لقد حاول ان يصلح شيئا مما اقترفه ولكنه لم يحقق اي شيء بعد ذلك ابدا» .

ان بعض المناضلين ، وغالبا اولئك الذين يفتقرون الى التجربة وكذلك الحالمون بالمدينة الفاضلة ، يتعرضون الى نوبات من الجزع واليأس حينما تلتبس عليهم بعض قضايا النضال ، او يواجهون مواقف وتسلكات ومظاهر لا تنسجم مع تصوراتهم للعمل الثوري .

واتذكر هذا الحوار . . .

الزمان : عام ١٩٦٠

المكان : مبنى جريدة اتحاد الشعب

يدخل شاب بلغ سن الرشد توا ، عيناه متورمتان من البكاء . . يغالب خجله ، ويبدو عليه انه حالم ، يتعثر ويقف امام الرفيق «القديم» وبعد ان يجلس يستسلم لنوبة بكاء .

– انك تغسل ذنوب الاخرين ببكائك !

– . . . . . .

– لماذا اصبحت شيوعيا ؟

– لانه المستقبل

– اذا استيقظت يوما فوجدت نفسك في بلد بلا حزب ، ماذا تفعل ؟

– أبداً

– مع من ؟

– مع العمال ، مع الفلاحين ، مع المثقفين . . . . . .

– وماذا تجد فيهم ؟

– كل مافي المجتمع . .

– واذا لم تجد حولك احدا ؟

– اواصل . .

– اذن ، لا تبك . . وواصل ، لكن تذكر بأستمرار انك انت الحزب ، وانك سلكت الطريق باختيارك وبوعيك ، وان الحزب كائن حي .

والتقيت هذا الرفيق مرات كثيرة فيما بعد . . وقال انه كان يبكي احيانا ولكنه كان بكاء الحالم وليس اليائس . . . !

ملامح البطل . .

بعد تعقد الوضع السياسي في البلاد ، وازدياد الخطر على مناضلي الحزب ، حمل رفيق من اللجنة المركزية عرضا لفوجيك بالرحيل عن البلاد ، تجنبا لخطر الوقوع في ايدي العدو ولكن فوجيك فضل ان يبقى في البلاد ، مادام مخيرا بين البقاء والرحيل . وفي هذا تجسيد لفكرته ان :

«البطل هو الرجل الذي يكون على استعداد في اللحظة الحاسمة للقيام بكل مايجب عليه ان يفعله لمصلحة المجتمع» .

ولم يكن فوجيك يفكر بالبطولة وهو يؤدي واجباته من موقع مسؤوليته ، وانما كان يتصرف كأنسان احب الحياة ، فاكتشف سرها :

العمل !

والعمل خالق الأنسان ، واداة تغييره ، وتغيير العالم من حوله ، والحياة دون عمل لا مغزى لها .

وقد عمل يوليوس فوجيك منذ صغره . عمل ممثلا وربما اكتشف وهو يمثل كيف يمكن ان يتغير انسان بقناع ! ولكنه تغير في الشكل ، في السطح . ولكنه يكتشف فيما بعد ، كيف يتغير الانسان من الداخل .

وباكتشافه هذا تتأصل فيه الرغبة في الحياة بشكل خلاق . وينطلق في رحاب الحياة مناضلا من اجل التغيير الكبير ، تغيير العالم من حوله ، لكي يصبح فيه فرح الطفولة الازلي : الضحك . . فرحا دائما للانسان .

«ان النظام القائم يمارس الضغط على كل عضو في هذا العالم القاتم ويعتصر كل ماهو انساني فيه» .

ولانه شديد الايمان بضرورة هذا التغيير ، وبالمستقبل الذي يبشر به ، يتفتح على الحياة بابتهاج كامل ، بتفاؤل عميق ، ويتشوق فرحا لكل فجر جديد ، لانه كان بشيرا بالاقتراب من المستقبل ، ولانه كان ينطوي على مسرة الاستمتاع بدفء الحياة ، بالعمل فيها يوما جديدا آخر . . .

«قد يكون البطل هو من يستطيع تركيز ابرز سمات امة معينة في نفسه وبحيث تكون لديه الشجاعة للتعبير عن هذه السمات تعبيرا صحيحا في اللحظة التي تتطلب ذلك» .

وليس للبطل الا ان يكون شجاعا ، جريئا ، متحديا حتى الموت في سبيل **«مصلحة المجتمع»** ، في سبيل تقدم البشرية . ولكن مايجعل الانسان عظيما هو **«الشيء الطبيعي العادي»** الشيء الذي يميزه كانسان .

وهكذا كان فوجيك !

اذكر ان بطلا من زماننا هذا طلب من جلاده ان يخرج معاونيه ، ليسره بشيء على

انفراد . وحينما انفرد به طلب منه ان يتلف الملف الخاص بقضيته «**وكان يحوي اسرارا تتعلق بحياة آخرين**» وهمس في اذنه ، «**انني اعدك بشرفي الثوري ، انك ان فعلت ذلك فسوف ننقذك في المستقبل !**» .

وقد اتلف الجلاد الملف . وعندما سأله رفاقه فيما بعد ، كيف وعد وهو في قبضة الموت ! ضحك بمرح وقال :

«**حسنا . كنت ساوصي به الحزب !**»

ان فوجيك يفعل هكذا ايضا مع جلاديه ! انه يبعث الخوف في نفوسهم .

– «**اذن فانت تعتقد . . . . . ؟**»

– «**انت على حق . لن نستطيع الانتصار الان . .**»

هكذا قال بيأس سميتونز السجان الالماني وهو يخرج من زنزانة فوجيك !

لقد ظل فوجيك يعمل بتفان حتى آخر لحظة في حياته . وحينما كان يكتب اخر اوراقه في زنزانته ، «لم يكن يكتب لنفسه» . بل كان منشغلا في تزويد الحزب بكل ما يتعلق بالضربة التي وجهت الى قيادته ومن الذي كان يتحمل المسؤولية في ذلك .

كان يعرض موقف رفاقه ، وسجانيه ، ويستخلص من كل ذلك دروسا للعمل اللاحق للحزب .

ان اخلاصه لواجبه الحزبي ، لمهمته الثورية ، وهو يواجه الموت ، يلخص ابرز فضائله ، كبطل ثوري ، كأنسان . . . . .

انه يولي اكبر اهتمام لاصغر التفاصيل ، مادام ذلك يخدم قضيته .

ان الاعمال البطولية لا تكمن فقط في الاستشهاد . لا تكمن فقط في الاعمال الكبيرة . وانما تكمن في الفضائل الصغيرة ايضا ، الصغيرة بحجمها ، الجليلة بنتائجها . تلك الاعمال التي تجسد البطولة الكامنة ، البطولة غير المرئية التي ينهض بشرف انجازها آلاف الابطال المجهولين . . .

هذا هو الدرس الذي يقدمه يوليوس فوجيك للمناضلين الثوريين ، وهو يكتب شهادته الاخيرة .

اية عظمة ابلغ دلالة من موقف فوجيك ومعاناته وهو يحلل نتائج خيانة «ميريك» ويتعقب آثارها ؟

انه لا يفكر بمحنته وعذاباته اليومية على ايدي الجستابو ، بل يتمزق الما للضربة التي

اصابت الحزب على يد الخائن . انه يفكر بالحزب .

«**ان هذه الضربة كانت اعنف ضربة تلقيتها هناك «في قصر بيتشيك» لقد انتظرت الموت ، لا الخيانة**» .

«**لقد سلم ميريك كل شيْ يتعلق بالعمل بين المثقفين» . . . اعترف حتى «على ليدا تلك الفتاة الشجاعة الوفية التي كانت تحبه» !**

وليس اكثر اشراقا في حياة المناضل الثوري ، في حياة البطل ، من التواضع . ان التواضع الثوري ، التواضع في اداء الواجب مهما كان صغيرا ، بعيدا عن الاضواء ، انما هو مَعْبَرٌ للعطاء الكبير . .

اذ «ينبغي للثوري الحقيقي (كما يؤكد لينين) ان يؤدي واجبه كذلك في العمل اليومي ، العادي ، الممل ، غير الملحوظ بين الجماهير ، مهما بلغ من الصعوبة والمشقة ، فان هذا العمل لا يذهب عبثا ابدا» .

وكان فوجيك مثالا للتواضع الثوري . كان يزهو بعمل رفاقه ، يبتهج بتفتح مواهبهم ، يضع نفسه في المؤخرة حينما يتعلق الامر بمن عمل افضل للحزب ! ان الاشياء الثمينة لا تلمع ، وانما تبهر !

تأملوا فوجيك ! كيف يقدم تقريره للحزب عن عمل اللجنة المركزية الاخيرة ، كيف يصف رفيقيه الاخرين ويقيم نشاطها ، كيف يؤشر لبطولتهما . . . وكيف يصف اخوتهم ! اية اخوة هي اكثر عمقا ، واكثر فخرا ومدعاة للبهجة ، من اخوة النضال والعمل الثوري المشترك !

ان فوجيك تمثل بعمق مغزى تأكيد لينين التحريضي ، على تمجيد عمل آلاف الثوريين المجهولين ، على تمجيد عمل المناضل حينما يجبره العدو على الاختفاء :

«**نعم نحن تحت الارض ، ولكننا لسنا مدفونين كالموتى ، وانما نحن كالنقاوى النابتة التي تطرح محصولا اشتراكيا سوف ينتشر في ارجاء العالم تحت شمس الربيع . . . !**»

كان فوجيك ، المحرض الباسل ، وهو يتمثل وصية لينين ، يتذكر هؤلاء الابطال المجهولين ، فيكتب في اوراقه الاخيرة :

«**. . سيأتي وقت يكون فيه هذا الحاضر ذكرى ، وسيتحدث الناس عن عصر عظيم ، وعن ابطال مجهولين صنعوا التأريخ ، وليكن معلوما انهم ماكانوا ابطالا مجهولين ، وانهم بشر لهم اسماء وقسمات وتطلعات**

وآمال . وان عذابات اصغر هؤلاء شأنا ماكانت اقل من عذابات اول من خلدت اسماؤهم . . .»

ويتداعى مع عاطفته الانسانية العميقة ، مع اخوته النضالية ، مع زهوه بالاخرين ، فيوصي باخوته هؤلاء . . **«وليكن كل اولئك اعزاء عليكم دوما ، مثل اناس تعرفونهم عن قرب ، اناس من صلبكم ، مثلكم» !**

لقد تمرد فوجيك على الواقع منذ وعى . رفض ، وفكر دائما ، **«لانه كان يحب التفكير دائما»** لكنه حتى حينما كان شابا ، لم يكن مثل الشباب الاخرين ، يعبر عن تمرده ورفضه بالنقد فحسب ، بل كان يجد في التفكير طريقا لايجاد :

«افكار جديدة ، وحل المشاكل ، واحلال الجديد مكان الاشياء القديمة . التفكير معناه العمل» .

لم يكن فوجيك يتلمس بانامله اطراف لحيته لادعاء التفكير ، لانه كان واثقا ان ملامسة اطراف اللحى يمكن ان تولد شيئا من المتعة ، لكنها لا يمكن ان تولد مفكرا او فيلسوفا ! ان التفكير معناه العمل .

وكان يمجد العمل ، ويرى في تعلق اي رفيق بعمله ، بواجبه الحزبي ، مظهرا لجوهر اصيل . ان اعجابه ببطولة ليدا **«الفتاة الجذلة ، الخلية القلب ، اللعوب لحد ما . .»** كان **يشع من كل كلمة كتبها وهو يرسم مجد صمودها ، ولكنه كان يهيم بموقفها من العمل ، من اداء واجبها الحزبي :**

«كانت تعرف الكثير ولم تقل شيئا . لكن الاهم من كل ذلك ، انها لم تتوقف عن العمل ابدا . وبتغير الوسط ، بدلت اساليب عملها وتبدلت مهماتها . الا ان واجبها كعضو في الحزب ماتبدل قط ، ان لا تطوي ذراعيها ، مهما كان القطاع الذي وجدت فيه» .

وفي مجرى الكفاح البطولي . لا بد ان يتغذى الثوري من معينه الذي لا ينضب ، من ايمانه ، وثقته المطلقة بالنصر ، وان يبدد اي وهم يعترض طريق نضاله . ان الايمان المطلق هو جدار فولاذي يتهشم عليه كل انواع الاعداء . يثير في نفوسهم الرعب ، ويشل حركتهم :

«ان التفاؤل لا يجوز له ولا ينبغي ان يتغذى على الاكاذيب ، بل على الحقيقة ، على رؤية واضحة للنصر لا تتزعزع» .

ولكي ينمو الثوري ويصبح جديرا بموقعه ، كمعول لهدم القديم المتهرئ ، وعين ذكية لاستشراف المستقبل ، لا بد ان يعزز ويعمق ايمانه بالمعرفة اذ **«لا يكفي ان يريد الانسان . بل يجب ان يعرف كيف يكافح»** . وان يعرف في كل لحظة . موقع قدمه . واين يضع الخطوة القادمة .

كيف . . ؟

ان الحزب ليس كما مجردا معلقا في مكان ما ، بل هو كائن حي يتنفس ويعيش وينمو بمناضليه ، بأيمانهم وشجاعتهم وصمودهم ، بفكرهم وعملهم المتفاني من اجل فرحهم الدائم . . . حدثني احد قادة حزبنا عن واحدة من هذه اللحظات التي ينبغي فيها على المناضل ان يفكر ويتصرف ، لكي يوقف وحشية العدو ، ويربك استهتاره .

« **«سألته بقدر مااستطعت عليه من هدوء . وهو ينفرد بي . في جو وحشي : لمصلحة من تضربني ؟ انا لا احمل لك عداوة شخصية . بل اضحي بكل مايعز على انسان من اجلك ايضا ، من اجل ان لا يظل حفنة من مستغلي شعبنا قادرين على تشويهك وتخريب اولادك من بعدك . . !»**

يذكر الرفيق انه همس بهذا الكلام وهو يرتجف ! يرتجف من البرد ، ويرتجف ، ربما ، من الخوف ايضا !

ان فوجيك يدرك خوف المناضل ويوظفه ضد جلاده !

«في كل انسان هناك ضعف وقوة ، شجاعة وجبن ، صمود واستسلام ، نقاء وقذارة» .

«فالمخلص يقاوم ، والغادر يخون ، والضعيف يتهاوى تحت اليأس ، والبطل يقاتل» .

ان خوف المناضل ليس خوف الضعيف المتهاوى ، بل احساس بالحياة ! ولهذا لا يوحي الثوري امام الجلاد بالخوف ، بل بالحياة ! انه لا يخاف الموت وانما يتسامى في حبه للحياة ، فيقوى ويكبر بامتداده في الحياة يكبر باستشرافه المستقبل ، فيعلو على جلاديه . . !

لانهم «عاجزون عن التظاهر حتى بمصالح كاذبة لامتهم او الرايخ انهم يعذبون ويقتلون لمجرد التلذذ» .

ان الجلاد لا يمكن ان يمتلك المستقبل ابدا ، انك لا يمكن ان تعذب انسانا حتى الموت دون ان تحطم شيئا ما في اعماقك ، شيئا عزيزا ، . . انسانيتك . ولهذا فالجلاد في نظر فوجيك

اسير يومه . انه يخاف المستقبل . وحينما يشعر الانسان بانسانيته ، يرفض ان يكون قاتلا ! لان الانسان يستطيع تطويع المستقبل بفكره وعمله . يستطيع ان يدرك اداة امتلاك المستقبل . ولم يكن الجلاد يوما ، عبر كل تأريخ البشرية ، اداة لامتلاك المستقبل . وفوجيك يستمد اعمق الايمان من معرفته هذه . فبيشر رفاقه ان هتلر لا يمكن إن ينتصر . لانه يناطح قانون الحياة ، التطور . ولابد لكم ان تقاوموا ، تصمدوا . . وان تنذروا جلاديكم :

و «لا يعينك على ذلك الا ايمانك الراسخ بانهم لن يفلتوا من القصاص العادل حتى ولو اجهزوا على كل الشهود على جرائمهم» .

انك وانت تفعل ذلك لن تخشى على قلبك ، لن تخشى على الانسان فيك ! لان **«بوسعهم ان يسلبوا الحياة منا . اليس كذلك ؟ ولكنهم لن ينتزعوا منا شرفنا وحبنا ابدا . . . . . »**

النشيد

اشرف على النهاية
في منعطف منها ، يقف في «الربذة»
ابو ذر الغفاري
يومئ بعينين مشرقتين ، ضاحكتين ، مخضلتين
– : قتلوك ياابا ذر !
فيضحك . . .
– : وحاولوا ان يقتلوا فيك حبك لعصرك وللناس
ويضحك . . .
وتسألني ياسيدي : الى اين؟
اليك ياسيدي . الى العصر ، والى فوجيك .
– : ولكنك حزين وقد قتلوني وانا اضحك ؟ . .
وقتلوا فوجيك وهو يغني . . .
لـ «انه لا يرى الحياة بدون اغنية»
«ونحن احوج مانكون هنا الى الاغنية»
وداعا ، ابا ذر
وداعا ايها الصحابي الجليل !

واجتاز محفات تحمل طغاة العصر . .
ها هنا سجن بانكراك ، زنزانة ٢٦٧
وهاهو حارسه كولينسكي ، وارى الناس حول فوجيك يغنون بصوت واعد !
انه بابلو نيرودا يغني لفوجيك !
فوجيك يسمع مبتسما ، ولكنه خجل ، يمص الدم لكي لا نراه
ولكن ذلك ضرب من الجنون ، فالدم يسيل منه ، حتى من اطراف انامله ؟
ويرتفع الغناء . . .
«هناك الكثيرون امثال فوجيك
اعلوا وشادوا
وفي كل حال اجادوا
وانت كذلك انجزت كل الذي في يديك
ضئيلا . . . جليلا
وما عرف المستحيل الطريق اليك
لانك تؤمن ان الخطى ان تلاقت قليلا
ستصبح جيشا وصبحا نبيلا
وانت ككل الذين ارادوا
لوجه الحياه رداء جميلا
تمنيت ان يطلع الصبح من قبضتيك
فعلت الذي كان حتما عليك
وما كان حتما على الناس جيلا فجيلا . . . »
يتوقف الغناء لبرهة . عفوا لتطفلي ايها الرفيق فوجيك . اقدم لك بعضا من اصدقائي ، جيلا آخر من الشهداء . ربما تعرفهم ، من هذه الارض المعطاء . . .
لكن لماذا ياسيدي انت حزين ؟
– : **«لقد عشت للفرح ، . . وفي سبيل الفرح اموت ، ولسوف تسيئون الي ، لو وضعتم ملاك الحزن على قبري»**
لكن الحزن مازال يعتصر قلوب الكثير من النسوة والاطفال . ايها الرفيق فوجيك ، انهم راسخو الايمان ، لكنهم يريدون نهاية احزان البشرية ايها الرفيق .

– : «اذا كنتم تعتقدون ان بوسع الدموع ان تغسل تراب الاسى . فلتبكوا اذن . ولكن لبرهة لا غير» ! !

ان البطل لا يريد البكاء . لا يريد الحزن . وانما العمل . مواصلة النضال . . . . الثقة الكاملة بالمستقبل . انه لم يمنح حياته عبثا ولهذا عرف كيف يواجه جلاديه حتى آخر لحظة :

«انكم ستقرأون حكمكم علي الان واعرف انه الموت للانسان . . . .

اما حكمي عليكم فقد نطقت به منذ امد بعيد لقد كتب فيه بدم جميع الناس الشرفاء في العالم

الموت للفاشية والحياة للانسان

المستقبل للشيوعية . . !»

ان البطل لا يرتخي في لحظاته الاخيرة . بل يصبح اكثر تماسكا . اكثر هدوءا . وقد كتب فوجيك في آخر رسالة لاسرته :

«ان الانسان لا يصغر حتى ولو قطعوا رأسه !»

حياة . . . !

في ٢٣ شباط من كل عام يولد يوليوس فوجيك . انه يوم ميلاده !

ولانه عشق الحياة . واحب جمالها . احبكم ايها الناس الشرفاء . وكان سعيدا معكم ! ولا شك انكم تحبونه . . . فاحتفلوا به . غنوا له وازرعوا في البستان الذي تعهده الورد من كل الالوان !

ان عنوانه معكم . انه قريب منكم . انه فيكم . في قلوبكم . في ضمائركم . . . في ضمائركم !

فعانقوه دائما . . . حافظوا عليه !

حافظوا عليه ايها الناس الشرفاء . ايها الرفاق . . . !

فخري كريم

١٩٧٨/١/ ١

مصدر

الرجل والبطل

تحت اعواد المشنقة

ملاحظة

جميع الاستشهادات الواردة في المقدمة اقتطفت من الكتابين المذكورين .

يوليوس فوتشيك

تحت اعواد المشنقة

تنويه من جوستا فوتشيكوفا

علمت من رفاق السجن . في معسكر اعتقال رافنسبروك . ان زوجي يوليوس فوتشيك ، رئيس تحرير «رودي برافو» و «تفوربا» ، قد حكم بالاعدام من قبل احدى المحاكم النازية في برلين بتاريخ ٢٥ آب ١٩٤٣ .

اما التساؤلات بشأن مصيره اللاحق فقد عادت اصداؤها تتردد من فوق الاسوار العالية المحيطة بالمعسكر .

واثر الهزيمة التي لحقت بالمانيا النازية في ايار ١٩٤٥ ، تم تحرير السجناء الذين لم يسمح الوقت للفاشيين بتعذيبهم او قتلهم . وكنت انا من بين هؤلاء . لقد عدت الى وطني المحرر وبدأت البحث عن زوجي . وكنت مثل الوف مؤلفة غيري ، ممن كانت وما برحت تفتش عن ازواجها وزوجاتها واطفالها وابائها وامهاتها ، ممن القى بهم المحتلون الالمان في مكان ما من اماكن تعذيبهم التي لا حصر لها .

ان حكم الاعدام قد نفذ بيوليوس فوتشيك في برلين بتاريخ ٨ ايلول ١٩٤٣ ، اي بعد اربعة عشر يوما من صدور حكم الموت عليه .

كما اصبحت على علم بان فرصة للكتابة قد سنحت ليوليوس فوتشيك اثناء فترة مكوثه في سجن بانكراك . وقد تم ذلك بفضل احد السجانين ويدعى ادولف كولينسكي الذي وفر له في الزنزانة القلم والورق وبات يهرب الصفحات المكتوبة ، واحدة اثر اخرى ، الى خارج السجن سرا .

لقد التقيت بهذا السجان وبدأت بجمع المادة التي كتبها يوليوس فوتشيك وهو في سجن بانكراك ، خطوة خطوة . ومن ثم عكفت على ترتيب هذه الصفحات المرقمة ، التي تم اخفاؤها في اماكن مختلفة ، عند اناس مختلفين . وها اناذا اقدمها الان . انها اخر ماكتبه يوليوس فوتشيك .

جوستا فوتشيكوفا

براغ – ايلول ١٩٤٥

ماكتب في سجن الجستابو بانكراك . ربيع ١٩٤٣

ان تجلس متأهبا ، جسدك متيبس باستقامة ، يداك مضغوطتان بشدة الى ركبتيك وعيناك تعشيان تقريبا وانت تحدق بالجدار المصفر لـ «بيت السجن» في قصر بيتشيك – ليس هذا بالتأكيد افضل وضع للتأمل . اذ من بوسعه ان يجبر فكرة لكي تجلس متأهبة ؟

مرة اطلق احد الاشخاص – الذي لن نعرف نحن ابدا متى كان ذلك ومن هو – على «بيت السجن» في قصر بيتشيك اسم (السينما) . لقد كانت ومضة تجل . غرفة رهيبة ، ست مصطبات طويلة الواحدة خلف الاخرى ، تحتلها اجساد المعتقلين المتصلبة الذين سيواجهون التحقيق ، امامهم جدار عار اشبه بشاشة سينما . ان ستوديوهات الدنيا كلها ما عرضت ابدا قدرا كهذا من الافلام مثل التي عرضت فوق هذا الجدار من خلال عيون المعتقلين الذين كانوا وما يزالون مرغمين على مواجهة تحقيق اخر ، للتعذيب او الموت – افلام تصور حيوات باكملها او تصور اكثر المشاهد تفصيلا من حياة ما ، افلام عن امهات ، نسوة ، اطفال ، بيت مهدم ، حياة ضائعة ، افلام عن رفاق صامدين وعن خيانة ، عن الرجل الذي سلمته تلك المنشورات ، عن دم يسيل ثانية ، عن كف ثابتة الجنان تعاهد بالوفاء ، افلام تكتظ بالاهوال والاصرار ، بالكراهية والمحبة ، بالمخاوف والامل . كان كل انسان هنا ، وهو يدير ظهره الى الحياة ، يموت يوميا امام مرأى نفسه . ولكن ما كان كل واحد يولد من جديد .

لقد شاهدت انا فيلمي الخاص مئات المرات ، تعاد تفاصيله الاف المرات . انني احاول الان ، لمرة واحدة لا غير ، سرد قصة هذا الفيلم . واذا كان حبل المشنقة سيلتف حول عنقي قبل ان انتهي ، فان هناك ملايين ستبقى بعدي لتكتب له (النهاية السعيدة) .

الفصل الاول

اربع وعشرون ساعة

بعد خمس دقائق ، تدق الساعة العاشرة . انه مساء ربيعي ، عبق ، جميل ، مساء ٢٤ نيسان ١٩٤٢ .

انني اسرع – قدر ما تسعفني عليه هيئتي المتنكرة بزي عجوز يعرج – اسرع الى دار اسرة جيلينك ، قبل غلق البوابة . ان ميريك «مساعدي» يجلس هناك بانتظاري . اعرف ان ما عنده لي هذه المرة لا اهمية له ، كما اني ايضا لا املك ما يستحق الذكر . ولكن حين يكون كل شئ قد اعد لعقد اجتماع ما ، فان النكوص عنه لا يعني الا اثارة الهلع – ولم اكن انا على الاخص ارغب باثارة مخاوف لا داعي لها في هذين الانسانين الطيبين ، اللذين يضيفوننا .

رحبا بي بقدح شاي . كان ميريك هناك بانتظاري – بالاضافة الى اسرة فريد . هذا طيش منكم . ايها الرفاق ، احب ان التقي بكم ، لكن لا على هذا النحو ، كلكم . فهذا هو الطريق المؤكد للسجن او الموت . اما ان تلتزموا بقواعد العمل السري ، او تتركوا العمل ، لانكم بهذا تجلبون المخاطر لانفسكم والاخرين . مفهوم ؟

«نعم ، مفهوم» .

«ما عندكم لي ؟»

«عدد اول ايار من (رودي برافو) .»

«رائع . وانت يا ميريك ؟ »

«لا جديد . لا يوجد هناك ما يستحق الذكر . فالعمل يسير بانتظام .»

«طيب . سنلتقي ثانية بعد اول ايار . وسأعلمكم بذلك . الى اللقاء اذن !»

«هيا ، خذ قدحا اخر من الشاي !»

«لا . شكرا يا سيدة جيلينكوفا ، فالدار تغص بنا .»

«ولكنه مجرد قدح اخر من الشاي ، تفضل .»

البخار يتصاعد من الشاي الذي خدر لتوه

ثمة من يقرع الجرس .

افي هذا الوقت من الليل ؟ من يمكن ان يكون ؟

تبدو اللهفة على الزوار . وينهمر القرع على الباب .

«افتحوا . شرطة !»

اسرعوا الى النافذة ! اهربوا لدي مسدس . سابقى لتغطية انسحابكم .

فات الاوان ! الجستابو تحت النافذة . يصوبون مسدساتهم الى داخل الغرفة . وتتدفق شرطة بملابس مدنية من الممر ، عبر الباب المحطم ، الى المطبخ ثم الى الغرفة . واحد ، اثنان ، ثلاثة ، تسعة رجال . انهم لا يستطيعون رؤيتي لانني كنت اقفز خلفهم مباشرة ، خلف الباب المشرع . يمكنني اطلاق النار دون عائق . لكن تسعة مسدسات مصوبة الى امرأتين وثلاثة رجال عزل . لو اني اطلقت النار ، فسيكونون اول من يقتل . وحتى لو اردت ان لا اقتل الا نفسي . فسوف يبدأ الرصاص يتطاير ويكونون هم الضحايا . لكني اذا امتنعت عن اطلاق النار ، فربما قضوا في السجن نصف عام او عام واحد وعندها ستحررهم الثورة وهم على قيد الحياة . ميريك وانا فقط لن نستطيع الافلات من هذا . سنتعرض الى التعذيب على ايديهم – لكنهم لن ينتزعوا مني اي شيء . وماذا عن ميريك ؟ رجل حارب في اسبانيا ، وصمد سنتين في احد معسكرات الاعتقال بفرنسا ، وجاء براغ بعد ان ترك فرنسا سرا ، والحرب في ذروتها – كلا ، انه لن يخون ابدا .

امامي ثانيتان لاحسم امري . او ربما كانت ثلاثا ؟

لو اني اطلقت النار ، فلن انقذ شيئا . لن انقذ الا نفسي من التعذيب ، لكن اربعة رفاق سيفقدون حياتهم دون مبرر . اليس كذلك ؟ اجل !

هيا !

اخرج من مخبأي .

«هاه ! واحد اخر !»

اول ضربة على الوجه . ربما كان القصد منها القاني ارضا .

«ارفع يديك !»

ثانية . ثالثة .

هوذا ماكنت اتوقعه .

وانقلبت شقة كانت محط رعاية جميلة الى مجرد كومة اثاث مبعثرة وزجاج محطم . مزيد من الضرب والركل .

«امشي !»

حشروني بسيارة وكانت مسدساتهم مصوبة الى طول الوقت . في الطريق بدأ التحقيق .

«من انت ؟»

«البروفسور هوراك .»

«كذاب !»

هززت كتفي .

«لا تتحرك ، والا اطلقت النار !»

«اطلق !»

وبدلا من اطلاق النار علي ، ضربوني لا غير .

نمر بحافلة . تبدو مزينة بالورود البيضاء . حافلة عرس ، في هذا الوقت من الليل ؟ لابد اني محموم .

قصر بيتشيك . لم احسب ابدا اني سادخله وانا على قيد الحياة . وها انا اصعد الان حتى الدور الرابع بسرعة مضاعفة . آه : القسم ٢ – أ – ١ الشهير ، قسم مكافحة الشيوعية . ويبدو لي ان الفضول قد اخذني لمعرفة ما سيحصل .

ضابط شرطة نحيل ، طويل ، آمر فصيل المداهمة ، يدفع بالمسدس في جيبه ويأخذني الى مكتبه . يشعل لي سيجارة .

«من انت ؟»

«البروفيسور هوراك .»

«كذاب !»

الساعة التي على رسغه تشير الى الحادية عشر .

«فتشوه !»

بدأ التفتيش . يجردوني من ملابسي .

«لديه هوية .»

«باي اسم ؟»

«البروفيسور هوراك .»

«دققوها !»

تلفون .

«غير مسجلة ، انها مزورة . تلك الهوية .»

«من اعطاها لك ؟»

«دائرة الشرطة .»

اول ضربة بعصا . ثانية . ثالثة . هل لي ان اعدها ؟ انك لن تستطيع ان تبعث بتقرير بهذه الارقام الى اي مكان ، يابني .

«اسمك ؟ تكلم ! العنوان ؟ تكلم ! مع من كانت صلتك ؟ تكلم ! اية شقق استخدمت ؟ تكلم ! تكلم ! تكلم ! والا ضربناك حتى تزهق روحك !»

كم عدد الضربات التي يسع رجل معافى ان يتحملها ؟

المذياع يعلن منتصف الليل . المقاهي توصد ابوابها . اخر الضيوف يأوون الى منازلهم ، العشاق يتوانون امام البيوت ، غير قادرين على الافتراق . الضابط النحيل . الطويل يلج الغرفة بابتسامة جذلة .

«كل شيء في مكانه – يا صديقي رئيس التحرير ؟»

من اخبرهم ؟ آل جيلينيك ؟ آل فريد ؟ انهم لا يعرفون حتى اسمي .

«الا ترى اننا نعرف كل شيء . تكلم وكن عاقلا .»

مفردات غريبة ! ان تكون عاقلا = ان تخون .

لست عاقلا .

«اوثقوه ! واضربوه بشدة !»

الساعة الواحدة . اخر الحافلات تعود الى محطاتها ، الشوارع تكاد ان تكون خالية .

المذياع يتمنى لمستمعيه الاوفياء ليلة سعيدة .

«من هم اعضاء اللجنة المركزية الاخرون ؟ اين هي معدات البث ؟ اين هي المطابع ؟ تكلم ! تكلم ! تكلم !»

الان استطيع ان احصي عدد الضربات بيسر اكبر . الالم الوحيد الذي يمكن لي ان اشعر به هو في شفتي التي سلخت جراء الضرب .

«انزعوا حذاءه !»

صحيح تماما ، ان باطن قدمي لم يخدر بعد . بوسعي ان احس به . خمسة . ستة . سبعة . كأن العصي الان تشق طريقها الى دماغي مباشرة .

الساعة الثانية . براغ مستسلمة للرقاد . في مكان ما ، ربما كان هناك طفل يتقلب في رقاده . ورجل ما يلاطف زوجته من ردفيها .

«تكلم ! تكلم !»

ادور بلساني في فمي واجرب ان اعد الاسنان التي سقطت . لا استطيع ان اعدها جميعا . اثنتا عشر . خمسة عشر . سبعة عشر ؟ لا . هذا عدد ضباط الشرطة الذين هم الان هنا لـ «استجوابي» . بعضهم يبدو عليهم التعب واضحا الان . مع ذلك ، فان الموت يأتي القدوم .

الساعة الثالثة . الفجر يزحف من حافة المدينة ، باعة الخضر في طريقهم الى الاسواق ، الكناسون ينتشرون في الشوارع . ربما سأعيش لكي اشهد فجرا اخر .

انهم يأتون بزوجتي .

امص الدم حتى لا تراه ، ان ذلك ضرب من الجنون فالدم يسيل من كل شبر في وجهي ، وحتى من اطراف انامل .

«هل تعرفينه ؟»

«كلا !» لا اعرفه .

قالت ذلك دون ان تند عنها حتى نظرة فزع واحدة . الحبيبة لقد برت بوعدها من انها لن تعترف ابدا بانها تعرفني ، رغم ان ذلك لم يعد مجديا الان . من يمكن ان يكون قد اخبرهم باسمي ؟

اقتادوها بعيدا . لقد ودعتها بالطف نظرة تمكنت عليها . ولكن لعلها لم تكن نظرة

لطيفة ابدا . انى لي ان اعلم .

الساعة الرابعة . هل انتشر النور الان ؟ ام ما زالت الظلمة جاثمة ؟ لم تكن النوافذ المسودة لتجيب ابدا . والموت يأبى القدوم حتى الان . اينبغي علي ان اذهب لملاقاتك ؟ وكيف ؟

ضربت . ارتطمت بشخص ما وسقطت على الارض . انهم يرفسونني ويدوسون علي .

نعم ، هكذا هو الامر وسوف تأتي النهاية سريعا . الضابط الاسمر يرفعني من لحيتي وهو يضحك باناقة ويريني قبضته ممتلئة بالشعر المنزوع عنوة . انه لامر مضحك حقا . فانا لم اعد اشعر باي الم .

الساعة الخامسة . السادسة . السابعة . العاشرة . منتصف النهار . العمال يتوجهون الى العمل ويؤوبون . الاطفال يؤمون المدرسة يعودون منها . في الحوانيت يبيعون . في البيت يطبخون . ربما تذكرني امي في هذه اللحظة بالذات . ربما عرف الرفاق باني قد اعتقلت فيتخذون تدابير الحيطة . . . ماذا سيحدث لو تكلمت . . . لا ، لا تقلقوا . لن اتكلم ، صدقوني . وعلى اية حال ، فالنهاية ما عادت بعيدة الان . كل شيء ان هو الا حلم الان ، حلم شرير ، محموم . ومرة اخرى تنهال الضربات ثم يرشونني بالماء والضرب ثانية وثانية «تكلم ! تكلم ! تكلم !» وانا ما زلت عاجزا عن الموت . يا امي ، يا ابتي . لماذا جعلتماني على هذا القدر من التحمل ؟

بعد الظهر . الساعة الخامسة . لقد تعب الجميع الان . الضربات تسقط الان متقطعة ، ما بين فترات طويلة . ما عاد الامر الان الا مسالة روتين . وفجاة من بعيد ، من بعد سحيق . يأتي صوت هادئ ، رقيق كأن ثمة من يلاطفني .

«لقد نال ما يكفي !»

ومن ثم كنت اجلس ، الطاولة التي امامي تنهار لتظهر ثانية ، وشخص ما يعطيني شيئا ما لاشربه واخر يقدم لي سيجارة لا استطيع ان امسك بها وشخص ثالث يحاول ان يلبسني حذائي ويقول انه لا يدخل وبعدها ها هم يخرجونني نصف مقتاد ونصف محمول اسفل السلم ، الى سيارة ، وها نحن ننطلق بالسيارة ، واحدهم يصوب مسدسه نحوي ثانية . يبدو لي ذلك مضحكا . نحن نمر بحافلة مزينة بزهور بيضاء ، حافلة

عرس . ولكن ربما كان الامر كله لا يعدو عن حلم . ربما كان الامر كله مجرد حمى ، او احتضار او انه الموت ذاته اخيرا . مع هذا فالموت صعب . اما هذا فهو يسير . هذا لا شيء على الاطلاق ، انه عبث اطفال لا غير . لعاب شمس . نفس اخر وينتهي كل شيء .

ينتهي كل شيء ؟ ليس الان ، لم يحن الاوان بعد . ها اناذا اقف ثانية . اجل ، حقا ، اني اقف لوحدي ، دون مساعدة احد . وامامي مباشرة جدار اصفر قذر ، ملوث بـ . . . بماذا ؟ يبدو كالدم . . . اجل انه دم . ارفع اصبعي واحاول ان احكه قليلا . . . وافلح . ما زال طريا ، انه دمي . . . وعندها يضربني احدهم على رأسي من الخلف ويأمرني ان ارفع يدي واقوم ببعض التمارين . في الحركة الثالثة اسقط . . .

احد رجال الاس اس طويل منتصب فوقي ويرفسني ليرغمني على النهوض . ما اسخف كل ذلك ! مرة اخرى ، يرشني احدهم بالماء ، مرة اخرى اجلس . امرأة تعطيني دواء وتسألني عن مكان الالم في ، كأن المي قد تجمع الان في قلبي .

«انت لا قلب لك !» يقول رجل الاس اس الطويل .

«اوه ، بلى ، ان لي قلبا» . اجيبه على الفور واشعر بالفخر لاني ما زلت املك ما يكفي من القوة لكي ادافع عن قلبي .

وعندها اخذ كل شيء بالتلاشي ثانية ، الجدار ، المرأة مع الدواء ورجل الاس اس الطويل . . .

امامي الباب المشرع للزنزانة . رجل اس اس بدين يجرني للداخل ، يرفع مزق قميصي ويسجيني على فراش من قش ، يتحسس جسدي الوارم ويأمر بجلب الكمادات لي .

يخاطب الاخر ويهز رأسه «انظر الى ما هم قادرون ان يفعلوه !»

وثانية من بعيد ، من بعد سحيق ، اسمع صوتا ، هادئا ، ناعما ، رؤوما كأنما ثمة من يلاطفني .

«لن يستطيع البقاء حيا حتى الصباح» .

بعد خمس دقائق تدق الساعة العاشرة . انه مساء ربيعي ، عبق ، جميل ، مساء ٢٥ نيسان ١٩٤٢ .

الفصل الثاني

احتضار

« حين نحلق نحو الانجم
نطبق اعيننا
فما نبصر بعد وهج الشمس . .»

رجلان . اذرعهما مطوية للاسفل امامهما . يتمشيان حول سرداب ابيض ، احدهما خلف الاخر . بخطى ثقيلة ، بطيئة . ينشدان ترتيلة كنسية . حزينة بصوتين متنافرين ، ممطوطين .

« . . . ما أعذب ان تصعد للسماء ارواحنا . وتبلغ غايتها رحلتنا ، تبلغ غايتها رحلتنا . .»

لقد مات أحدما . . من يكون ؟ احاول ان ادير رأسي . علني ألمح نعشا ، فيه ميت والشمعتين المشرئبتين للاعلى فوق الرأس . .

« . . . وحيث ظلمة الليل تنتهي ،
وحيث النور الابدي يتوهج» .

لقد رفعت بصري اخيرا ، لم يكن بأمكاني رؤية احد . لا يوجد احد هنا – هذان الاثنان وانا فقط . لمن اذن ينشدان ترانيمهما الجنائزية ؟

«وهذا النجم الساطع ابدا . يسوع هو ، ابن الله الحق» .

هذه جنازة . اجل جنازة لاريب فيها . ومن ترى يدفنون ؟ من هناك ؟ هما الاثنان فقط – وأنا . أنا نفسي ! ! يمكن ان تكون جنازتي ؟ ولكن اصغيا الي ياصديقيّ ، لا ان يكون هناك سوء فهم ! فما انا بميت ابداً ، بل حي مثلكما تماما . الاتريان بنفسيكما انني انظر اليكما واتحدث اليكما . قفا ! واياكما ان تدفناني !

«حين الراحل الغالي الحبيب
يودعنا الوداع الابدي الحزين . .»

لكنهما لايسمعاني وكأن بهما وقر ! الا أتحدث بصوت مرتفع ؟ أم اني قد مت حقاً ولم

يعد بأمكانهما ان يسمعا صوتا لا جسد له ؟ أم أن جسدي هو المسجى هناك على بطنه واني احدق في نعش ؟ شيء غريب !

«تتطلع العيون الحرى الى السماء –
هاقد بلغت نهايتها رحلته ،
هاقد بلغت غايتها رحلته . . .»

اتذكر الان : لقد رفعني احدهم بصعوبة والبسني ثيابي ، ثم انهم حملوني على نقالة ورنت في الرواق خطى معدنية وعندها . . هذا كل ما أذكره . ولا أعرف اكثر من ذلك . لا اذكر شيئا أخر .

« . . . هناك حيث النور الابدي يتوهج . . .»

لكن كل هذا لا معنى له . فانا حي . وبأمكاني الشعور بوجع ما بعيد وبالظمأ . و الموتى لا يعطشون . اجمع كل ما بقي لدي من قوة لاحرك يدي . فينسلخ عني صوت غريب ، غير طبيعي :

«ماء !»

أخيرا توقف الرجلان عن الدوران . وهاهما ينحنيان علي . احدهما يرفع رأسي ويسكب الماء في فمي .

«اسمع يافتى ، عليك ان تأكل شيئا . يومان وانت تكرع الماء وتكرع ليس الا . . .»

مالذي يقصده بقوله ؟ منذ يومين ؟ وفي اي يوم نحن اذن ؟

«الاثنين !»

الاثنين . لقد اعتقلت منذ يوم الجمعة . ما اثقل رأسي ! وما الذ برودة السماء ! النوم ! دعوني انام ! لقد مزقت قطرة ماء واحدة السطح الزجاجي للبئر . هذا هو نبع الماء في المرج وسط الجبال ، هذا النبع الذي اعرفه قرب كوخ الحطاب ، عند قاعدة جبل روكلان ، وحفيف المطر الناعم بين اشجار الصنوبر . . . يالعذوبة النوم . . .

. . ومرة اخرى حين استيقظ ، يكون الوقت مساء الثلاثاء وفوقي كلب منتصب . كلب الزاسي ، يتطلع الي متسائلا بعينيه الذكيتين . الجميلتين ويبادرني بالقول :

«اين كنت تعيش ؟»

اوه ، كلا . ليس هو الكلب . فهذا صوت مخلوق آخر . نعم ، شخص آخر يقف هناك يمكنني ان ارى جزمته الضخمة وزوج آخر من الجزمات الضخمة وسراويل عسكرية . ولكني غير قادر على رؤية ما هو أعلى . فما ان احاول ان ارفع بصري حتى يبدأ رأسي يدور ويدور . اوه ، وما أهمية ذلك ، دعوني انام . . .

الاربعاء .

الرجلان اللذان كانا ينشدان التراتيل يجلسان الى طاولة الان ، يتناولان الطعام في آنية من الفخار . يمكنني ان اميزهما الان . أحدهما اصغر سنا من الاخر . لكن مظهر الرهبان لا يبدو على اي منهما . والسرداب لم يعد سردابا ، بل زنزانة سجن مثل غيرها وارضيتها تبتعد عن نظري وهي تتقارب لتنتهي الى باب اسود ثقيل . . .

يصر مفتاح في القفل ، فيقفز الرجلان ويقفان على أهبة الاستعداد ثم يلج المكان شخصان آخران بملابس الأس اس ، يصدران أمرهما بوضع ملابسي علي لم تكن عندي ادنى فكرة كم من الاوجاع كانت مختبئة لي في كل ساق من ساقي السروال وفي كل كم من قميصي – ثم وضعت على نقالة وحملاني ونزلا السلم بي والخطوات المعدنية ترن على طول الرواق . . . اذن هذا هو الطريق نفسه الذي اقتادوني عبره في المرة السابقة وانا فاقد الوعي . الى اين يؤدي هذا الطريق ؟ وفي اي جحيم ينتهي ؟

القوني على ارضية مكتب الاستقبال البشع ، الكئيب لقلم محكمة الشرطة الالمانية في بانكراك وارتفع صوت تشيكي ، بطيبة مدعية ، يترجم لي سؤالا بصفه صوت المانى غاضب :

«هل تعرفها ؟»

رفعت ذقني بيدي . أمام النقالة تقف فتاة يافعة ذات وجه عريض . كانت تقف باعتزاز ، منتصبة القامة ، مرفوعة الجبين بسمو دون تحد ، فقط عيناها منخفضتان قليلا بالقدر الكافي لرؤيتي والقاء التحية بهما علي .

انا لا أعرفها .

اذكر اني لم أرها الا للحظة خاطفة ، في تلك الليلة الوحشية بقصر بيتشيك . وها اني أراها المرة الثانية . ومع الاسف ، لم أرها مرة ثالثة لاتمكن من ان اشد على يدها معبرا

عن اعتزازي بموقفها السامي في هذا المكان . كانت زوجة ارنوست لورينز . وقد تم اعدامها في الايام الاولى من اعلان الاحكام العرفية عام ١٩٤٢ .

«وهذه ، لابد انك تعرفها جيدا .»

أنا جيراسكوفا ! رباه ، أنيكا . مالذي جاء بك الى هنا ؟ انا لم انطق باسمك بتاتا ، وليس لك ادنى علاقة بي ، انا لا اعرفك ، هل تفهمين ، لا اعرفك . .

«كلا ، لا اعرفها»

«هيا يارجل ، كن عاقلا !»

«لا أعرفها .»

«فات الاوان يايوليوس ! تقول اندكا ووحدها حركة غير محسوسة من انامله التي كانت تتشبث بمنديلها هي التي فصحت اضطرابها فات الاوان . لقد وشى احدهم بي .

«من ؟»

«اخرسي !» – قاطعها احدهم بحدة ودفعها بعنف الى الوراء عندما انحنت لتصافحني .

انيكا !

لا يمكنني ان اسمع المزيد من الاسئلة . ومن بعيد ، ومن دون الم ، كأنني كنت مجرد متفرج ، شعرت برجلي الاس أس يعودان بي الى الزنزانة ، يرميان النقالة بوحشية ويسألاني وهما يقهقهان ان كنت افضل ان اتمرجح معلقا من عنقي .

الخميس

بدأت باسترجاع وعي . احد رفاق السجن وهو الاصغر سنا ، يدعى كارليك ، وينادي الاكبر سنا «ابتي» انهما يحدثاني بشيء ما عنهما ، لكن كل شيء يختلط في رأسي ، هناك شيء ما عن منجم واطفال يجلسون على مصطبات . اسمع جرسا يرن . لابد ان النيران قد اندلعت في مكان ما . ويزعم ان طبيبا واحد ممرضي الاس أس يأتيان لمعاينتي يوميا ويزعم اني لم اكن على تلك الدرجة من السوء واني ساتعافى ثانية . هذا ما يقوله «ابتي» وهو يقول ذلك باصرار متناه ويؤكد كارليك على كلامه بحماس ، حتى اني برغم ما انا عليه ما برحت قادرا على الشعور بأنهما انما كانا يمرران علي كذبة بلقاء . ما

أطيب قلبيها ! ولكم اشعر بالاسف لانني عاجز عن تصديقها .

بعد الظهر .

ينفتح باب الزنزانة ويندفع اليها كلب . دون ضوضاء . بخفة . يقف على رأسي ويتطلع الي بفضول ثانية . ومرة اخرى جزمتان ضخمتان – أعرف الان : أحداهما تعود الى صاحب الكلب ، مدير سجن بانكراك . أما الاخرى فلرئيس قسم مكافحة الشيوعية في الجستابو ، وهو نفسه الذي اشرف على التحقيق معي تلك الليلة – ثم زوج سراويل مدنية – تابعتهما عيناي الى اعلى – أجل . اعرفه . انه ذلك الضابط النحيل ، الطويل الذي كان يقود فصيل المداهمة . انه يجلس على كرسي ويأخذ بالتحقيق معي .

«لقد خسرت لعبتك . انقذ رأسك على الاقل وتكلم !»

يقدم لي سيجارة . ارفضها ، فانا عاجز عن تحملها .

«كم بقيت تسكن لدى عائلة باكس ؟»

لدى عائلة باكس ! هذا ايضا ! من ترى اخبرهم بذلك ؟

«الاترى اننا نعرف كل شيء . هيا تكلم !»

اذا كنتم تعرفون كل شيء ، فما نفع كلامي بعد ؟ انا ما عشت حياتي سدى – ولن افسد نهايتها .

ويستمر التحقيق ساعة واحدة . ولم يكونا يصرخان بل يعيدان اسئلتهما بصبر وحين لا يظفرا بجواب . يوجهان الثاني . والثالث والعاشر .

«الا يمكنك ان تفهم ؟ لقد انتهى الامر . هل تفهم . وضاع منك كل شيء .»

«انا الذي ضعت فقط .» .

«مازلت تؤمن بانتصار الكومونة ؟

«طبعا»

«مازال يؤمن» يتساءل الرئيس بالالمانية ويترجم الضابط الطويل «مازال يؤمن بانتصار روسيا ؟»

«طبعا . لا يمكن للامر ان ينتهي الا على هذا النحو .»

عندها راودني التعب . لقد جمعت ما تبقى عندي من قوة لاظل يقظا . فالان قد

بدأت ذهني تنضب بسرعة مثل دم يتدفق من جرح عميق . ومازال بأمكاني ان اشعر بهم وهم يمدون اياديهم لي – ربما كانوا يقرأون شارة الموت على جبيني . هذا صحيح ، ففي بعض البلدان . جرت العادة ان يقوم حتى الجلاد بتقبيل المحكوم بالاعدام قبل تنفيذ الحكم فيه .

مساء .

رجلان باذرع مطوية . يتمشيان بدائرة ، الواحد خلف الاخر ، ينشدان مرثية حزينة . بأصوات متنافرة . ممطوطة :

«حين نحلق نحو الانجم»

«نطبق اعيننا . فما نبصر . . . »

كفى ! ايها الناس . ايها الناس ! وبما كنتم تنشدون تراتيل جميلة . لكن اليوم ، هذا اليوم هو عشية الاول من أيار ، اجمل وابهج اعياد الانسان .

احاول ان انشد شيئا جذلا . ولكن قد يبدو ذلك اشد حزنا . فها هو كارليك يستدير مبتعدا و (الاب) يمسح دموعه . مع هذا فاني لا اريد ان استسلم واواصل الغناء وشيئا فشيئا ينضم الاثنان الي . أخذتني سنة النوم وانا سعيد .

يطلع صباح الاول من ايار .

تدق ساعة برج السجن الثالثة . لاول مرة اسمعها تدق بوضوح . انا الان بكامل وعيي . لاول مرة منذ اعتقالي . احس بطراوة النسيم تنهمر علي من النافذة المفتوحة ، تمد فراشي القشي على الارض واعواد القش تضغط على صدري وبطني وكل شبر من جسدي يتوجع بألف وجع وأجد صعوبة في التنفس . وفجأة ، أرى كل شيء بوضوح ، كما لو ان نافذة فتحت : هذه هي النهاية اذن ، انني احتضر .

لقد استغرقت وقتا طويلا . ايها الموت . حتى تأتي . ومع هذا فقد كنت ما ازال عامرا بالامل ان لا التقي بك الا بعد سنين طوال . مازال الامل يراودني ان اعيش حياة رجل حر ثانية . ان اعمل كثيرا . احب كثيرا . اغني كثيرا واجوب الدنيا . والحق اني لم انضج إلا الآن حسب . وكان عندي الكثير من القوة . اما الان ، فلم تعد عندي اية

قوة . لقد نضبت وها هي توشك على الانتهاء .

لقد عشقت الحياة ومن اجل جمالها دخلت سوح النضال . ولقد احببتكم ، ايها الناس . وكنت سعيدا حين بادلتموني نفس الحب ذكان الالم يعتصرني يوم لم تكونوا تفهموني وانتم يامن اسأت اليكم ، سامحوني ، ومن منحته الفرح فلينسه ، فلا شكر على واجب !

اريد ان لا يرتبط الحزن باسمي ابدا . هذه وصيتي لكم يا ابتي ويا امي ويا أخواتي وانت ياحبيبتي جوستا وانتم ايها الرفاق ولكل من كان عزيزا علي . واذا كنتم تعتقدون ان بوسع الدموع ان تغسل تراب الاسى ، فلتبكوا اذن ، ولكن لبرهة لا غير . ولا تتأسوا علي . لقد عشت للفرح وفي سبيل الفرح اموت ولسوف تسيئون الي لو وضعتم ملاك الحزن على قبري .

اول ايار ! انها الساعة التي اعتدنا فيها ان ننهض في الضواحي ونهيء راياتنا . هذه هي الساعة التي تنطلق فيها اولى الكراديس في شوارع موسكو لتشارك في مسيرة اول ايار . وفي هذه الساعة ايضا تخوض الان ملايين الناس اخر المعارك من اجل حرية الانسان و يتساقط الوف الشهداء في سوح النضال . انا واحد من هؤلاء . وان يكون المرء واحد منهم ، واحداً من المناضلين في هذه المعركة الاخيرة لهو امر رائع .

لكن ان يكابد المرء سكرة الموت ، فهو امر لاروعة فيه . . . انني اختنق ويستحيل علي التنفس اسمع حشرجة في حنجرتي . مازال بامكاني ان اوقظ رفاق السجن . قد يكون علي ان ارطب بلعومي بقطرة ماء . . . لكن الماء نفذ كله من الجردل . هناك على مسافة ستة خطوات لاغير ، في التواليت عند ركن الزنزانة ، ما يكفي من الماء . ولكن ترى اعندي من القوة ما تكفي للوصول اليه ؟

ازحف على بطني ، بهدوء ، بمنتهى الهدوء ، كأن مجد الموت كله قائم في عدم ايقاظ احد . لقد زحفت المسافة كلها وها انا اعب الماء بنهم في قاع التواليت .

لا ادري كم استغرق ولا أدري كم من الوقت اقتضاني لكي اعود زاحفا . وها اني اغيب عن الوعي ثانية . واتحسس النبض في معصمي . اشعر بخدر تام . لقد صعد قلبي

الى حنجرتي وها هو يهوى بعنف من حالق وانا معه ، أهوي في مكان سحيق . وكنت وانا اهوى ، اسمع صوت كارليك وهو يقول :

«ابتي ابتي هل تسمع ؟ ها هو المسكين يشرف على نهايته .»

في الصباح ، جاء الطبيب . لكنني لم اعرف ذلك الا بعد وقت طويل .

جاء وفحصني وهز رأسه . ثم عاد الى غرفة العيادة ، مزق شهادة الوفاة التي ملأها باسمي في اليوم السابق واصدر حكمه كأختصاصي :

«ان له لبنية حصان !»

الفصل الثالث

زنزانة ٢٦٧

سبع خطوات من الباب حتى النافذة . سبع خطوات من النافذة حتى الباب . أعرف هذا .

كم مرة قطعت هذه المسافة على ارضية الواح الصنوبر من زنزانة سجن بانكراك هذه ! ربما في هذه الزنزانة بالذات . سجنت مرة من قبل فقد رأيت بجلاء نتائج السياسة المشؤومة التي انزلتها البورجوازية التشيكية بالشعب التشيكي . وها هم الآن يصلبون شعبي . والحرس الالمان يتمشون في نوبة الحراسة امام باب الزنزانة . وثمة في مكان ما خارج السجن ، اقدار سياسة عمياء تحوك كرة أخرى خيوط الخيانة . كم من القرون ينبغي ان تمر على الانسان قبل ان يفتح عينيه؟ وعبر كم الوف من الزنزانات ينبغي على الانسانية ان تشق طريقها الى امام؟ وكم منها ما زال المستقبل يدخرها؟ ايه يسوع الطفل يا ابن نيرودا ، رحلة الانسان صوب النور ما زالت بعيدة عن نهاية نضاله . ولكن : لا تنم بعد الآن ، لا تنم بعد الآن !

سبع خطوات هناك ، سبع خطوات الى الوراء . سرير مطوي عند احد الجدران . اما عند الجدار الآخر فرف ذو لون داكن موحش صفت عليه آنية من الفخار . اجل ، اني اعرف هذا . الآن فقط ، تمت مكننة الاشياء لحد ما . فهناك تدفئة مركزية واستبدل الدلو بحنفية ماء . ولكن ما تم مكننته قبل كل شيء هو الناس ، الناس في المقام الأول . وكآلة مؤتمنه ، ما ان يضغط على زر ، اي يصر بالمفتاح في باب الزنزانة او يفتح ثقب التجسس ، حتى يقفز السجناء من اماكنهم ، مهما كان الشيء الذي ينشغلون به ، ليقفوا على أهبة الاستعداد ، احدهم خلف الآخر . أو افتح الباب . فيصرخ مسؤول الزنزانة بنفس واحد :

« انتباه ! زنزانا نمائتا مو سبعتوستون التعداد ثلاثتسجناء بالتمام .* » .

---

* بالالمانية

زنزانة رقم مائتين وسبع وستين – التعداد ثلاث سجناء بالتمام .

اذن : ٢٦٧ . هي زنزانتنا . ولكن في هذه الزنزانة لا تعمل الاتمتة بدقة متناهية . اثنان يقفزان فقط . اما انا فاستلقي على فراشي القشي تحت النافذة . انبطح على بطني اسبوعا ، اسبوعين ، شهرا ، ستة اسابيع – وها اني اولد ثانية . اللحظة يمكنني ان احرك رأسي . اللحظة يمكنني ان ارفع ذراعي . اللحظة يمكنني ان انهض بجسدي على مرفقي واحاول حتى ان انقلب على ظهري . . . وما من ريب فالكتابة عن هذا هو اسرع من مكابدته .

والزنزانة تتعرض للتغيير . فعند باب الزنزانة وضعوا اثنين ، لا ثلاثة . هناك الآن اثنان منا لا غير . لقد رحل كارليك ، اصغر الرجلين سنا ، الرجلين اللذين شيعاني الى القبر بتراتيل الحداد ، وما خلف بعده الا ذكرى انسان طيب القلب . لست اراه في الواقع الا فيما يشبه الحلم ، خلال اليومين الأخيرين التي سبقت رحيله . ها هو يقص علي بأناة قصته مرة بعد أخرى ولا يلبث النعاس ان يداهمني منتصف القصة ذاتها .

اسمه كاريل ماليك . ميكانيكي اعتاد ان يشتغل عامل مصعد في منجم للحديد في مكان ما قرب هودليك . من هناك كان يقوم بتهريب المتفجرات التي كانت المقاومة بحاجة اليها على الجبهة الداخلية . منذ سنتين اعتقلوه وعليه الآن ان يمثل امام احدى المحاكم ، ربما في برلين ، مع عدد كبير آخر ممن اتهموا في القضية ذاتها . من يدري كيف سينتهي الأمر؟ لكاريل زوجة وطفلان ، يهيم بحبهم – كان علي ان افعل ذلك في النهاية . انت تعرف ، لم يكن امامي سبيل آخر . ساعات طويلة يجلس الى جانبي ويرغمني على الأكل . لا أستطيع ، يوم السبت – أحقا مضت علي ثمانية ايام وانا هنا؟ – ثم ما لبث ان قام بمجهود كبير : قال للحارس الممرض باني لم اتناول شيئا منذ ان جيء بي الى هنا . وها أن الحارس الممرض ، الحاجب الصحي لبانكراك ، الدائم القلق وهو ببزة الأس أس والذي من دون اذنه لا يستطيع الطبيب التشيكي ان يكتب اية وصفة ولا حتى بحبة اسبرين واحدة ، ها هو يأتيني بنفسه بأناء من الحساء المغذي ، وينتظرني الى ان اكون قد انتهيت منه كله . ويراود كارليك شعور بالرضى عن النفس لهذا التوفيق وما ان يكون اليوم التالي قد حان ، حتى يصب لي بنفسه حصته من حساء يوم الأحد ويقدمها الي .

لكن الوضع لا يستمر طويلا . ذلك ان لثتي التي سحقت تماما لا تمكنني حتى من

مضغ البطاطا المهروسة في هريس يوم الأحد ويرفض بلعومي المتقلص ابتلاع اية لقمة مهما كانت لينة .

« انه يرفض ان يأكل حتى الهريس ، حتى الهريس ! » ينوح كارليك ويهز رأسه بأسى وهو يراقبني .

ومن ثم يأتي على حصتي بنهم ، ويتقاسمها مناصفة مع « ابتي » .

ايه انتم ، انتم يا من لم تعرفوا ابداً طعم الحياة عام ١٩٤٢ في بانكراك ، هيهات ان تعرفوا ، ولن تعرفوا اي شيء هو الهريس ! حين تقرقر المعدة من الجوع عادة ، حتى في اسوء وضع ، وحين تذهب للحمام الهياكل العظمية المغطاة بجلود البشر ، وحين يسرق رفيق شيئا من حصة رفيقه ، بلمح البصر ، حتى مجرد مرقة خضار يابسة مقززة ممزوجة بعصير الطماطة الهزيل ، تبدو ترفا كبيراً ، شهياً وحتى في اسوء تلك اللحظات ، جرت العادة ان يفرغ سجناء الخدمة مرتين في الاسبوع – الخميس والأحد – ملء مغرفة من البطاطا في قصعتك ويسكبون عليها ملء ملعقة من صلصة الهريس مع نتف صغيرة من اللحم . وكان مذاق ذلك لذيذا ، لا بل اكثر من ذلك . كانت تذكيرا ملموسا بالحياة الانسانية ، شيئا متحضرا ، شيئا طبيعيا وسط القساوة الشاذة لسجن الجستابو . شيئا كان الحديث يجري عنه بعذوبة وجذل – أواه ، من يمكنه ان يتصور اية فضائل سامية يمكن ان تعطيها لنا ملعقة ملأى بالصلصة اللحم المتبلة بأهوال القرب الدائم من الموت ! سرعان ما اصبحت قادراً على ان افهم دهشة كارليك . كنت أرفض ان آكل حتى الهريس . ولم يكن هناك من شيء يقنعه بموتي الوشيك اكثر من ذلك .

الليلة التالية ، في الساعة الثانية ، ايقظوا كارليك . وكان عليه ان يستعد للرحيل خلال خمس دقائق ، كأنه لن يغيب الا لحظة واحدة ، كأنه لم يكن على وشك القيام برحلة قد تمتد حتى نهاية عمره ، الى سجن آخر ، الى معسكر اعتقال ، الى ساحة الاعدام ، من ترى يعلم الى اين . ومرة اخرى ، ركع الى جانب فراشي القشي واحاط رأسي بذراعيه وقبلني – وانطلقت صيحة خشنة من سجان في بزته الرسمية وهو في الرواق حتى يبرهن ان المشاعر لاحق لها في الوجود في بانكراك وهرع كارليك عبر الباب وصر القفل ولم يبق في الزنزانة الا نحن الاثنين .

هل سيقدر لنا ان نلتقي ثانية يا فتى ؟ والوداع التالي ، أموعده قريب ؟ ومن منا نحن الاثنين سيسبق رفيقه ؟ والى اين ؟ ومن سيناديه ؟ سجان ببزة اس أس ؟ أم الموت ، الذي لا بزة له ؟

ليس ما اكتبه الآن الا رجع تلك التأملات التي ظلت باقية معنا منذ اول وداع . لقد مر عام على ذلك ومع هذا فان تلك الافكار التي اقترنت بفراق رفيقنا غالبا ما كانت تتردد بالحاح . والشخص الآخر المعلق عند باب الزنزانة تبدل مرة الى ثلاثة ومرة الى اثنين واخرى الى ثلاثة ، اثنين ، ثلاثة ، اثنين ووصل معتقلون آخرون ثم رحلوا – إلا هذين الشخصين ، اللذين بقيا في زنزانة ٢٦٧ ذلك اليوم ، ما برحا يجلسان معا بوفاء . « ابتي » وانا .

« ابتي » – معلم في الستين ، اسمه جوزيف بسيك ، عميد المعلمين . اعتقلوه قبلي بخمسة وثمانين يوماً بتهمة التآمر ضد الرايخ لانه قدم مشروعاً لاصلاح المدرسة التشكيكية الحرة . ان « ابتي » . . .

ولكن كيف ستكتب عن ذلك يا بني ؟ انه لعمل شاق . رجلان ، زنزانة واحدة وعام واحد ! آنذاك كان القوسان حول اسم « ابتي » قد اختفيا – لقد اصبح عندها رفيقا السجن ، وهما بعمرين مختلفين ، اباً وابناً في واقع الأمر ، وفي ذلك الوقت تبادلا معاً العادات والتعابير المفضلة وحتى نبرة صوتينا – حاولوا ان تميزوا اليوم ما هو لي وما لابتي ، ما الذي حمله الى الزنزانة وما الذي حملته انا اليها !

قضى الليل ساهراً بقربي ليلة التراتيل وأبعد الموت بالدموع والكمادات البيضاء ، كلما توفرت . وبنكران ذات نظف القيح عن جراحي وما بدر عنه اي يوم ابداً ما يدل على شعوره برائحة العفن المنبعثة من فراشي القشي . لقد غسل ورتق خرق قميصي الذي راح ضحية لأول تحقيق اجروه معي . وحين اصبح القميص لارجاء منه ابداً ، البسني ثيابه الداخلية . وهو من حمل الي مرة زهرة الربيع واوراق عشب خاطر بجمعها اثناء نصف ساعة الرياضة الصباحية في باحة سجن بانكراك . وكان يتابعني بعينين رؤومتين كل مرة كنت استدعي فيها للتحقيق ، ليضمد جراحي الجديدة بكمادات جديدة حين أعود . وحين يأخذونني الى التحقيق ليلاً ، لم يكن لينام ابداً حتى أعود ، فيسحبني الى فراش

القش . وبرفق يدثرني بأغطيتي .
هكذا كانت بداياتنا وما غيرت حياتنا المشتركة ذلك . حتى عندما اصبح بأمكاني الوقوف على قدمي لأسدد ديون الأبن .
لكنك ، يا بني ، لن تستطيع ابداً ان تكتب كل شيء هكذا . دفعة واحدة : فذلك العام ، كانت للزنزانة ٢٦٧ حياة حافلة . وكل ما عاشته . عاشه أبتي بطريقته الخاصة . لابد لذلك ان يقال . والقصة ما انتهت بعدها (وهذا ما يحمل معه في الظاهر بارقة أمل) .

للزنزانة ٢٦٧ حياة غنية . كل ساعة ينفتح الباب وتبدأ حملة تفتيش . هذه هي الرقابة الصارمة المفروضة على مجرم شيوعي خطير ، لكنه قد يكون الفضول المكشوف ايضاً . فغالباً ما يموت هنا من لم يكن يقصد موتهم . ولكن نادراً ما حدث ان بقي على قيد الحياة من كان الكل يتوقع موته . والسجانون من الاجنحة الأخرى يأتون هم ايضا الى هنا ، يتبادلون الحديث او يزيحون بصمت الاغطية ويتلذذون بمعاينة الجروح بعين خبير ووفقا لما جبلوا عليه ، فانهم يدلون بنكات ساخرة او يتحدثون بنبرة اكثر وداً . احد هؤلاء – وقد اطلقنا عليه اسم (الشمام) – غالباً ما يتردد اكثر من غيره ، يأتي وعلى وجهه تكشيرة عريضة ويتساءل عما اذا كان «الشيطان الأحمر» بحاجة الى شيء . كلا ، شكراً . انه لا يحتاج الى اي شيء . بعد ايام قليلة ، يكتشف (الشمام) ان الشيطان الأحمر بحاجة الى شيء حقاً : ان يحلق . وهكذا يروح ويأتي بحلاق . هو ذا أول سجين التقيه من غير الذين في زنزانتي : الرفيق بوشيك . وتبرهن الخدمة الطيبة التي أداها (الشمام) على انها بركة مزدوجة . يسند ابتي رأسي ويركع الرفيق بوشيك جنب فراشي القشي وهو يحاول ان يشق طريقاً في دغل الزان من لحيتي بشفرة عمياء . يداه ترتعشان والدموع تملأ مآقيه . كان موقناً انه انما يحلق ذقن جثة . وأحاول ان اعزيه :
«تشجع أيها الأخ ! اذا كنت قد صمدت في تحقيق قصر بيتشيك ، فلا أحسب اني عاجز عن الصمود كما ينبغي امام حلاقتك» .

غير اننا ، معاً ، ما عدنا على ذلك القدر من التحمل وكان علينا ان نستريح ، هو وأنا .

بعد يومين ، تعرفت على سجينين آخرين . كان صبر الضباط في قصر بيتشيك قد نفذ . فارسلوا في طلبي ولأن الحارس الممرض يكتب على اوراق الاستدعاء كل يوم «في وضع لا يسمح بنقله» ، فقد اصدروا اوامرهم بضرورة جلبي مهما كانت الاسباب . وهكذا قدم سجينان ، بملابس السجن الرسمية ومعهما نقالة وبصعوبة بالغة البسني أبتي وحملني الرفيقان الى النقالة وانطلقا بي . كان احدهما هو الرفيق سكوريبا ، الذي سيصبح فيما بعد الاب اليقظ للرواق كله . لقد انحنى علي حال ان انزلقت من السطح المقدس للنقالة ، اثناء نزولنا السلم وقال لي :
«اصمد !»
(واضاف بهمس نصائح قيمة) .
هذه المرة ، لم نتوقف عند مكتب الاستقبال . وواصلا التقدم بي ، خلال الرواق الطويل ، نحو الخارج . كان الرواق يغص بالناس – فاليوم خميس ، وذوو السجناء يأتون لاخذ الغسيل – والكل يتطلع الى موكب الحداد هذا – وقد امتلأت عيونهم بنظرات العطف . ولم يكن هذا يعجبني . ولهذا السبب ارفع يدي الى رأسي واضم قبضتي . ربما يروها ، فيعرفون اني احييهم . قد تكون مجرد اشارة حمقاء ولكن ما كان بامكاني عمل اي شيء اخر . وما عادت عندي من القوة ما يكفي .

في باحة سجن بانكراك وضعا النقالة في شاحنة ، اثنان من رجال الاس اس يجلسان مع السائق واخران مثلهما ايديهما على قرابي مسدسيهما المحلولين ، يقفان على رأسي واقدامها منفرجة – وننطلق . لا ، لم يكن الطريق مثاليا تماما – حفرة بعد الاخرى – وقبل ان نقطع مائتي متر ، فقدت الوعي ، لقد كانت رحلة مضحكة ، عبر ازقة براغ : شاحنة بحمولة خمسة اطنان ، مخصصة لثلاثين سجينا ، تصرف البنزين من اجل نقل سجين واحد وفي المقدمة رجلا الاس اس واثنان مثلهما في المؤخرة ، يحملقان بهيئة فريسيه ، مسدسيهما في يديهما ، يحرسان جثة ، مخافة ان تهرب .
في اليوم التالي تكررت المهزلة . لكنني صمدت هذه المرة حتى قصر بيتشيك . ولم يستغرق التحقيق وقتا طويلا . لقد تحسس الضابط فريدريش جسدي دون اكتراث . ومرة اخرى حملوني عائدين وانا فاقد الوعي .
وتمر الايام وماعدت اشك الان بانني على قيد الحياة . لقد ذكرني الالم – شقيق الحياة

الطبيعي . بهذا بجلاء تام . وبات سجن بانكراك يعلم هو الاخر بانني ما بقيت على قيد الحياة الا لسبب خطأ ما . وبدأت اولى التهاني تصل الي :

تهاني تقرع على الجدران السميكة او تحملها عيون السجناء الخدم حين يوزعون الطعام . كانت زوجتي وحدها التي لا تعرف شيئا عني لقد عاشت وهي وحيدة في زنزانتها على مبعدة طابق واحد لاغير تحتي ومجرد ثلاثة زنزانات او اربعة بعيدا عني . موزعة بين القلق والامل الى ان اسرَّ لها احدى جاراتها خلال الرياضة الصباحية بانني قد انتهيت وانني اسلمت الروح في الظاهر جراء الجراح التي لحقتني اثناء التحقيق . بعدها هامت في ساحة السجن ودارت الدنيا من حولها ولم تشعر بسجانتها وهي تعزيها بالضرب على وجهها . محاولة ان تعيدها الى الصف الذي هو رمز انتظام حياة السجن . ترى ما الذي كان بوسع عينيها الواسعتين . الطيبتين ان تريا وهما تحدقان . دون دموع . بجدران زنزانتها البيضاء ؟

في اليوم التالي وصلتها شائعة اخرى : كلا . انا لم اضرب حتى الموت تماما . لكني بسبب عدم قدرتي على تحمل الالم – شنقت نفسي في زنزانتي .

ابان ذلك . كنت انا منبطحا على فراشي القشي البائس واستدير بعناد على جنبي كل مساء وصباح . لكي انشد لجوستينا الاغاني التي تعشقها .

كيف يمكن ان لا تسمعها وقد شحنتها بكل هذا القدر من المشاعر ؟

اليوم لابد انها عرفت . لابد انها سمعت اليوم . رغم انها ابعد اليوم مما كانت بالامس . اليوم حتى السجانون يعرفون وقد اعتادوا الان . ان الزنزانة ٢٦٧ تغني . لقد غنيت طوال حياتي . ولست ارى سبب يحملني على ان اتوقف عن ذلك . وانا في النهاية تماما . حين تصبح الحياة في ذروة توترها . والاب بسيك ؟ اوه . انه حالة استثنائية ! انه يهيم حباً بالغناء . ورغم انه لا يملك لا اذنا موسيقية ولا صوتا ولا ذاكرة موسيقية . لكنه يهيم بالاغنية بذلك الجلال ووفاء المحب . يجد فيها غبطة لا حدها . حتى اني لأكاد لا أسمعه وهو ينتقل من مقام الى اخر . وهو يغني بعناد مقام جي حين يكون سمعك يطرب لاغنية من مقام أي . وهكذا نغني معاً حين يتملكنا الخوف . نغني حين يكون النهار بشوشا . نغني لنودع رفيق راحل قد لا نلقاه ثانية . نغني ونحن نهلل للاخبار الطيبة من ميادين القتال الشرقية . نغني للسلوان . نغني للفرحة . مثلما غنى الناس في كل العصور

وسيغنون طالما هم بشر .

لا حياة دون اغنية كما لاحياة دون شمس نحن احوج ما نكون هنا الى الاغنية ضعفين لان الشمس لا تصلنا . فالزنزانة ٢٦٧ تطل على الشمال وفي اشهر الصيف فقط – تمر الشمس لحظات وهي تغرب لترسم ظل قضبان . لنا فذة على الجدار الشرقي – وفي تلك اللحظات ينحني الاب على السرير ويتطلع الى هذه الشمس الزائرة العابرة . وعندها يمكنك ان تشهد اعمق نظرة حزن . الشمس ! بأي سخاء يشع هذه الساحرة المستديرة ! واية عجائب تصنعها لعيون البشر ! ما أقدر ما تعيش الناس تحت الشمس . ولكنها ستشرق وتظل تشرق وسيعيش البشر في فيض سناها . ما أجمل ان يدرك الانسان هذا . ومع ذلك فلكم يود الانسان ان يعرف شيئا اخر اقل اهمية من ذلك بكثير : وهل ستشرق علينا نحن ايضا ؟

زنزانتنا تطل على الشمال . في الصيف وحده ، حين يلملم النهار ذيوله – نشاهد أحيانا الشمس وهي تغيب . اواه ابتي . اود من القلب لو أرى الشمس تشرق ولو مرة واحدة اخرى !

الفصل الرابع

غرفة اربعمائة

البعث من الموت مسالة غريبة نوعا ما . غريبة لحد تستعصي على الوصف . حين تكون قد نمت جيدا . العالم جذاب في نهار جميل . عندما تكون شبعت نوما كانما كان اجمل . وأنك لم تنم مثلما نمت الآن . وتحسب انك تعرف مسرح الحياة جيدا . لكن هذا اشبه بالنور حين يشعله الفنيون دفعة واحدة . يسطع الزجاج ، وفجأة ترى المسرح وقد انير برمته فتحسب انك تبصر جيدا . لكن هذا اشبه بمن يضع على عينيه منظارا مركبا على ميكروسكوب . الانبعاث من الموت مجرد مسألة ربيع كمثل الربيع الذي يمنحك دهشة غير متوقعة حتى في اكثر المشاهد التي اعتدت عليها .

وهذا ما يقع حتى حين تعلم ان ذلك لن يدوم الا لحظة . حتى عندما يكون ما يحيطك بمثل بهجة وغنى ما انت عليه في احدى زنزانات بانكراك . في يوم ، اذن ، يحملوك الى الدنيا ثانية . وفي يوم يطلبونك للتحقيق دون نقالة . ومع انك تحسب ذلك محالا . فسوف توفق بطريقة ما . كان للرواق حاجز وللسلم درابزين وانت في الواقع تزحف على اربع لا على اثنين وفي الاسفل يتلقفك رفاق السجن ويوصلونك الى شاحنة السجن ثم تجد نفسك جالسا ، عشرة ، اثنا عشر رجلا في زنزانة مظلمة تسافر . وجوه جديدة تبتسم اليك وانت تبتسم لها . احدهم يسرك بشيء ما همسا وانت لا تعرف من يكون ، وتشد على يد احدهم وانت لا تعرف من يكون وما ان تترنح الشاحنة في مدخل قصر بيتشيك ، حتى يحملك الرفاق وتلج غرفا فسيحة ذات جدران عارية ، خمسة مصطبات ، تصطف الواحدة تلو الاخرى ، يجلس عليها اشخاص متاهبون ، ايديهم على ركبهم ، يحدقون بسكون الى الجدار الفارغ امامهم . . . وهذه ، يافتى ، قطعة من عالمك الجديد ، تدعى السينما .

انتر ميتزو الأول من أيار ١٩٤٣

اليوم هو الأول من ايار ١٩٤٣ . والسجان الذي في الواجب شخص مأمون الجانب . ولهذا يمكنني ان اكتب . فاي حظ سعيد هذا ! ان تكون صحفيا شيوعيا مرة اخرى حتى ولو لبرهة قصيرة وتكتب تقريرا اليوم عن استعراض الاول من ايار ، عيد القوى المناضلة في سبيل عالم جديد !

لا تنتظر ان تسمع مني حديثا عن الرايات الخفاقة . فشيء من هذا القبيل لا وجود له . كما لا يمكنني ان اسرد عليك حتى طرفا من النشاطات المحركة التي يطيب سماعها . اليوم كل شيء ابسط بما لا يقاس . فلا الموج الصاخب ، الذي يتفجر بعشرات الألوف ، التي كنت أراها في السنين الماضية وهي تتدفق في شوارع براغ ولا بحر الملايين المهيب تموج في الساحة الحمراء بموسكو . هنا لا يمكنك ان ترى الملايين ولا حتى المئات . هنا ترى فقط حفنة رفاق رجالا ونساء . ورغم هذا ، فانت تشعر ان هذا لا يقل شانا عن ذلك لانه استعراض قوة إجتازت لتوها لظى النيران ولم تتحول الى رماد ، بل الى فولاذ . انه استعراض في الخنادق اثناء المعركة . وفي الخنادق نرتدي لباس القتال .

كل شيء موجود في مثل هذه التفاصيل الصغيرة . وما أدراني ان كنت ، يا من ستقرأ هذا يوما ما ، ستفهم ذلك ، انت الذي ما عشت هذا ابدا . ولكن جرب ان تفهم . صدقني . هناك قوة في هذا .

تحية الصباح من الزنزانات المجاورة التي تنقر سلمين من بيتهوفن ، تفيض اليوم بحبور الاحتفال وبثقة اعظم والجدار يرددها بنبرات أعلى . نرتدي افضل ما عندنا . ويحدث الشيء نفسه في الزنزانات كلها .

وحين جاء الافطار كنا بكامل حلتنا . امام باب الزنزانة المفتوح يصطف سجناء الخدمة بالخبز والقهوة المرة والماء . ويوزع علينا الرفيق سكوريبا ثلاثة ارغفة بدلا من اثنتين . انه يحي اول ايار بطريقته : تحية مؤثرة من قلب رؤوم . ومن تحت الارغفة تضغط الأصابع على بعضها . فالكلام محرم ، حتى العيون مراقبة . لكن الا يمكن للبكم ان يتحدثوا بأناملهم بما يكفي من الوضوح ؟

تحت نافذة زنزانتنا . تسرع النسوة في الباحة الى نصف ساعة الرياضة الصباحية اصعد الطاولة واطل من القضبان الحديدية . قد يرونني اذا حالفني الحظ . وقد فعلوا . ها هم يرفعون قبضاتهم تحية . وارد التحية لهم . في الساحة . تحت . تبدو الاشياء كلها حية اليوم . مختلفة تماما . اكثر بهجة وحيوية من اي يوم اخر . والسجانة لا ترى شيئا . او انها قد لا تكون راغبة في رؤية اي شيء . وهذا شيء اخر لا تراه الا في احتفال الأول من ايار .

وتحين الان نصف ساعتنا الصباحية . واكون انا على رأس الرتل . انه الأول من ايار . ايها الرفاق وعلينا ان نبدأ بطريقة تختلف عن سائر الايام . حتى لو بدا الحرس مندهشين . التمرين الاول . واحد اثنين . واحد اثنين . المطرقة تضرب . والتمرين الثاني : الحصاد . المنجل والمطرقة .

وبقليل من الخيال . سيفهم الرفاق الفكرة . المنجل والمطرقة . اتطلع حوالي . ها هم يبتسمون ويكررون التمرين بنشاط متناه . لقد عرفوها . هيا . ايها الرفاق . هو ذا حفلنا للأول من ايار . وهذا المشهد الأيماني . انه مشهدنا للأول من أيار . نبقى امناء له حتى الموت .

نعود الى الزنزانة . الساعة التاسعة . الآن تدق ساعة الكرملين العاشرة ولتوه ينطلق الاستعراض في الساحة الحمراء . أبتي . نحن ماضون معهم ! وها هم ينشدون الأممية الآن . في هذه اللحظة يتردد نشيد الأممية في كل ارجاء الدنيا كلها . فليتردد اذن في زنزانتنا كذلك . ونشرع في الغناء . نشيد ثوري يجلجل بعد آخر . اننا نغني لاننا لا نريد ان نكون لوحدنا . لسنا وحيدين . نحن من صلب اولئك الذين ينشدون الآن بحرية . ولكنهم مثلنا في المعركة . سواء بسواء . . .

يا رفاق السجن

وزنزانات التعذيب الباردة .

انتم معنا . انتم معنا

وان لستم هنا معنا . . .

أجل . نحن معكم .

وهكذا رسمنا نحن . نزلاء زنزانة ٢٦٧ . النهاية الظافرة لاحتفال الاول من ايار ١٩٤٣ . ولكن اهذه هي النهاية يا ترى ؟ اذن ما بال تلك الحاجة من قسم النساء .

تجتاز الباحة هذا المساء وتصفر مارش الجيش الأحمر ونشيد «الأنصار» وغيرهما من الأغاني السوفياتية . لتبعث في نفوس نزلاء الزنزانات العزيمة ؟ وما بالك بذلك الرجل . ببزة شرطي تشيكي . يأتي بقلم وورق وها هو في الواجب الآن يفحص الرواق لكي يتأكد ان لا يفسد علي كتابتي متطفل ما ؟ وما بالك بذلك الرجل الاخر الذي شجعني حقا على ان اكتب هذا . هذا الذي يأخذ هذه الصفحات ويخفيها بعناية . كي يقدر لها ان تظهر للوجود عندما يحين الوقت ؟ انهم يخاطرون بحياتهم ثمنا لقصاصة الورق هذه . انهم يجازفون برؤوسهم ليكونوا جسرا بين الحاضر المسيج بالقضبان وحرية الغد . انهم يناضلون . انهم يناضلون بوفاء وشجاعة كل من موقعه . وعلى ساحة معركته وبالوسائل التي يملكها . انهم متواضعون . مجهولون لا يعرفون التردد ابدا . الى الحد الذي لا تعرف فيه شيئا عن الصراع الضاري الذي يخوضونه الى جانب اصدقائهم و حظهم ان يسقطوا صرعى فيه كمثل حظهم بالظفر فيه .

عشر مرات . عشرون مرة شاهدت انت جيش الثورة في مسيرات الاول من ايار . شيء عظيم . ولكنك في النضال وحده تتعلم كيف تقدر القوة الحقيقية لهذا الجيش الذي لا يمكن سحقه . ان الموت لابسط مما حسبت والبطولة لا هالة لها . أما النضال فانه ما برح اشد ضراوة مما حسبت ولكي تصمد فيه وتواصله حتى النصر . فأمر يتطلب عزيمة لا حد لها . كل يوم ترى ذلك في حركته . لكنك لا تدرك ذلك على نحو تام دوما . اذ يبدو كل شيء أمرا عاديا لحد كبير . وها انت اليوم تدرك هذا ثانية .

في استعراض الأول من ايار ١٩٤٣ .

لقد قطع الاول من ايار ١٩٤٣ مؤقتا مجرى هذه الحكاية . وهكذا هو الحال . ففي ايام الاحتفالات يتذكر المرء الأمور بطريقة اخرى تقريبا . فالفرح الذي يرين على اليوم ربما كان يشوه ذكرياتي .

ان «سينما» قصر بيتشيك ليست بالتأكيد أمرا مسليا . فهي غرفة انتظار لمكان التعذيب الذي لا تسمع فيه الا الانين وصرخات الرعب التي تنطلق من الرفاق الاخرين . وانت لا تدري ما ينتظرك . اذ ترى الناس تخرج من هنا معافاة . قوية . ممتلئة بالحياة وبعد

ساعتين او ثلاثة من التحقيق تعود وهي مشوهه ومحطمة . وانت تسمع من ينادي على التحقيق بصوت مرتفع ، وما ان تمر ساعة حتى يتناهى اليك صوت كسير ، متيبس من الألم والحمى ، يعلن عودة صاحبه . وثمة ما هو اسوء من ذلك : انت تشاهد اناسا يذهبون الى التحقيق وقد ارتسمت عليهم امارات المهابة والثبات . لكنهم حين يعودون لا يسعهم رفع رؤوسهم والتطلع في عينيك . في مكان ما من غرفة التعذيب هناك ، ربما مرت لحظة ضعف بعينها ، لحظة واحدة من التردد ، ومضة خوف او توق للحفاظ على الذات ، واليوم أو غدا سيصل آخرون هنا ليذوقوا صنوف الأهوال من جديد ، اناس جدد سلمهم الى العدو احد رفاق النضال . ان مرأى الناس الذين يعذبهم ضميرهم لأشد هولا من مرأى اولئك الذين عذبوا جسديا . واذا كانت لك بصيرة فتحها الموت الذي يحوم حولك ، واذا كانت المرارة قد طبعت مشاعرك بعد ان بعثت من الموت ، فانك ستدرك بالفطرة ، من دون كلمات ، من تذبذب ومن يمكن ان يكون قد اضحى خائنا أو من في ركن ما من روحه يمكن ان تكون قد خامرته فكرة ان السماح للنفس بشيء من الراحة والادلاء باعتراف على آخر رفاقه المناضلين قد لا يكون على تلك الدرجة من السوء . الضعفاء المساكين ! اية حياة هذه التي يمكن ان تشترى بحياة رفيق آخر ؟ ربما لم تكن هذه اول خاطرة راودتني حين جلست في «السينما» المرة الاولى . لكن هذه الفكرة غالبا ما تعاودني . ولا ريب انها قد عاودتني ثانية هذا الصباح ولو في جو مختلف بعض الشيء في وسط كان من اكثر مصادر المعرفة حيوية : «غرفة ٤٠٠» .

ما مكثت طويلا في «السينما» ، ساعة ربما او ساعة ونصف . ثم سمعت من خلفي من ينادي بأسمي . بعدها جاء رجلان بملابس مدنية ، يتحدثان التشكيكية ، اقتاداني الى المصعد حتى الطابق الرابع الى ان بلغنا غرفة واسعة كتب على بابها رقم

٤٠٠

اول الامر ، جلست وحيدا وهم يراقبونني ، في الخلف تماما وعلى الكرسي المنعزل قرب الجدار ، اخذت اتطلع حولي يراودني شعور غريب لرجل يحس بانه قد مر من قبل بشيء كهذا . هل جئت هنا من قبل ؟ كلا . ومع هذا ، فاني اعرف ذلك . اعرف هذا المكان . لقد حلمت به . رأيته في حلم رهيب ومحموم حول شكل المكان وشوهه على نحو

مخيف ولكنه لم يستطع ان يمحوه . وها هو المكان يبدو الآن انيسا ، يفيض بنور الصباح ، الالوان المشرقة ومن نوافذه العريضة ذات القضبان الخفيفة تلوح كنيسة تين وهضاب ليتنا الخضراء وقصر هرادشين . لقد كانت الغرفة في حلمي مكانا معتما ، دون نوافذ الا من نور شاحب وسخ تبدو الناس فيه كالاشباح . نعم ، كان هناك اناس فيه . اما الان فالمكان خال والمصطبات الستة ، التي تصطف احداها خلف الأخرى ، تبدو مثل مرج جذل من الهندباء وازهار العشب الصفراء . كان المكان ، في حلمي ، يغص بالجالسين هنا على هذه المصطبات ، الواحد يلتصق بالآخر ، وجوههم شاحبة ومدماة . وهناك ، عند الباب تماما ، يقف رجل ذو عينين تمتلآن بالأسى وهو ببزة العمل الزرقاء ، يلوب من اجل جرعة ماء ، يريد أن يشرب الماء ، يشرب ثم يهوى على الأرض ، على مهل ، كأنه ستارة تنسدل .

اجل ، لقد كان الأمر على هذا النحو . لكني اعرف الآن ان ذلك لم يكن حلما . فقد كانت تلك التجربة الرهيبة المحمومة أمرا واقعا .

حدث ذلك ليلة اعتقالي ، اثناء التحقيق الأول . ربما اقتادوني الى هذا المكان ثلاث مرات ، ربما عشر مرات –اني لي ان اعرف كم مرة ؟– كلما ارادوني ان استريح أو حين كانوا يمارسون التعذيب مع آخرين . كنت حافي القدمين ، واذكر بلاط الارضية الباردة ، تنعش برودته اللذيذة باطن قدمي المكدودين .

كانت المصطبات آنذاك يجلس عليها عمال من منشآت الجونكر . كانوا الغنيمة المسائية للجستابو . اما ذلك الرجل الذي كان يقف عند الباب بملابس العمل الزرقاء فهو الرفيق بارتون من خلية المعمل في منشآت الجونكر ، السبب غير المباشر لاعتقالي . اقول هذا ، دون ان يكون هناك من ينبغي القاء المسؤولية عليه عن المصير الذي الت اليه . فلم تكن هناك خيانة او جبن من جانب اي رفيق . كان الأمر مجرد قلة يقظة وسوء حظ ، اذ كان الرفيق بارتون يبحث عن صلة لخليته بالقيادة . غير ان صديقه ، الرفيق جيلينيك ، الذي تجاهل قواعد العمل السري ، وعد بترتيب هذه الصلة دون ان يعرض الأمر علي لكي اقوم انا بترتيب المسألة دون ان تكون له علاقة بالأمر كله . كانت هذه واحدة من الأخطاء . اما الأخرى ، وهي القاتلة ، فكان سببها ثقة الرفيق بارتون بجاسوس اسمه

دفوراك ، اذ اطلع الرفيق بارتون هذا الرجل على اسم جيلينيك –ومن هنا سر اهتمام الجستابو بأسرة جيلينيك وليس نتيجة نشاطها الرئيسي الذي كانت تؤديه بصورة جيدة مدة عامين. انما بسبب خدمة صغيرة ، انحرفت قيد شعرة عن ضرورات العمل السري . والواقع ان الجستابو في قصر بيتشيك كان قد قرر اعتقال اسرة جيلينيك تلك الليلة بعينها التي كنت فيها على موعد في شقتها وما القوة التي جاءوا بها لاعتقالهم الا مصادفة محضة ، حيث لم تكن هذه نية الجستابو اصلا . فقد كان من المقرر القاء القبض على اسرة جيلينيك في اليوم التالي ويمكن القول في الواقع ان الجستابو داهم شقتهم عفو الخاطر تقريبا ، لمجرد «استنشاق نفس من الهواء» بعد الكشف الناجح للخلية في منشآت الجونكر. ولم تكن دهشتنا ، على اية حال ، لوصول الشرطة بأقل من دهشتهم من اعتقالي هناك . فلم يكونوا يعرفون عندها حتى من هو الشخص الذي اعتقلوه . ومن يدري ان كانوا سيعرفون اي شئ عني ابدا ، إن لم يكن معي في نفس الوقت ، الا اني لم اتوصل الى معرفة هذه الاستنتاجات الاولى في غرفة ٤٠٠ الا بعد فترة من الزمن . وحينها لم أعد بعد وحيدا . فقد كانت المصطبات ابان ذلك والجدران من حولي قد غصت بآخرين والساعات تمر حافلة بالمفاجآت . مفاجآت غريبة ، لم افهمها ومفاجآت شريرة ، فهمتها تماما كلها .

غير أن المفاجأة الاولى لم تكن من هذين الصنفين . كانت مفاجآت صغيرة ، معرفة لا تعني شيئا لأحد .

المفاجأة الثانية . يتقاطر اربعة اشخاص في الغرفة برتل واحد ، يلقون التحية على المدنيين في وجبة الحراسة باللغة التشيكية –وعلي ايضا . جلسوا الى الطاولات وفتحوا محافظهم ، واشعلوا سجائرهم بحرية ، . . . بحرية تامة كأنهم موظفون هنا . ولكني كنت اعرفهم بالطبع ، اعرف ثلاثة منهم على الأقل ، لا يمكن قطعا ان يكونوا عملاء للجستابو– أم يمكن ان يكونوا ؟ هم ايضا ؟ لكن هذا هور ، الامين السابق للحزب والنقابات ، شخص متهور بعض الشئ ولكنه وفي . كلا ، لا يمكن هذا . وهذه آنكا فيكوفا ، ما زالت كعهدي بها بمنتهى الجمال والشجاعة رغم شعرها الابيض ، مناضلة صلبة ، عنيدة . كلا ، لا يمكن هذا . وذاك هو فاسيك ، عامل منجم من شمال بوهيميا

اصبح بعدها امينا لمنظمة قضاء . كيف يمكن لي ان لا اعرفه . بعد تلك اللحظات المروعة التي مررنا بها معا في الشمال أن يكسروا ظهره ؟ كلا . لا يمكن هذا . ولكن ما الذي يبغونه هنا ؟ وماذا جاءوا يفعلون في هذا المكان ؟

لم اكن قد وجدت بعد اية اجوبة لهذه الاسئلة حين بدأ المزيد من الناس يتكدس في الغرفة . ها هم يأتون بميركو واسرتي جيلينيك وفريد – اجل . هؤلاء اعرفهم حق المعرفة ، فهم واسفاه من تم اعتقالهم معي . ولكن ماذا يفعل بافل كروباشيك هو الآخر هنا ؟ مؤرخ الفن هذا الذي كان يساعد ميركو في عمله بين المثقفين ؟ ومن يعرف عنه شيئا عداي وميربك ؟ وماذا عن ذاك الشاب الطويل الذي غطت وجهه الجروح ، يؤشر لي ليفهمني باننا لا نعرف احدنا الآخر ؟ والحق ، اني لا أعرفه بتاتا . وهذا الآخر؟ ستيش ؟ الدكتور ستيش ؟ زدينيك ؟ ياالهي ، انهم مجموعة الاطباء ! وهذه من يعرف عنها شيئا عداي وميركو ؟ ولماذا كانوا اثناء التحقيق في الزنزانة يسالونني عن المثقفين التشيك ؟ كيف امكنهم التوصل الى الربط بيني وبين العمل بين المثقفين ؟ ومن يعرف عن ذلك شيئا عداي وميركو ؟

لم يكن السؤال عصيا على الاجابة . ولكنه كان شاقا . قاسيا : لقد انهار ميركو . لقد اعترف ميركو . ومع هذا فقد كنت لبرهة ممتلئا بالأمل بان ميركو لم يفش اي شئ ابدا . ولكن ها هم يأتون بمجموعة أخرى من المعتقلين– واي :

فلاديمير فانكورا ، البروفيسور ميلبر وابنه . بيدريش فاكلافيك وقد تنكر بحيث يستحيل معرفته . بوزينا بوليانوفا ، جيندريش البيل . النحات دفوراك . كل اولئك الذين شكلوا اوكان يفترض ان يشكلوا اللجنة الوطنية الثورية للمثقفين التشيكيين ، كانوا هنا كلهم . لقد سلم ميركو كل شئ يتعلق بالعمل بين المثقفين .

لم تكن الايام الاولى في قصر بيتشيك سهلة تماما . غيران هذه الضربة كانت اعنف ضربة تلقيتها هناك . لقد انتظرت الموت ، لا الخيانة . ومهما حاولت ان احكم برفق . مهما حاولت ان آخذ بالاعتبار كل الظروف المخففة . ومهما حاولت ان اعزي نفسي بما لم يفشه ميركو حتى الآن . ما استطعت ان اجد كلمة أخرى تصف ذلك الا الخيانة . لم يكن هذا مجرد تذبذب او ضعف . مجرد انهيار كامل لرجل عذب حتى الموت يفتش عن

الراحة في هذيانه . لاشيء يمكن ان يغفر له ذلك .

الان فهمت كيف تسنى لهم ان يعرفوا اسمي اول ليلة . الان فهمت السبب الذي من اجله اقتادوا انيكا جيراسكوفا الى هنا . لقد التقيت بميريك عدة مرات في شقتها . الان فهمت لماذا كان كروباشيك والدكتور شيش هنا . كنت أذهب الى الغرفة ٤٠٠ كل يوم تقريبا . وكل يوم كنت احصل على تفاصيل جديدة . انه لشيء محزن ومخيف ان ترى ذلك الرجل الذي كنت تحسبه قوي الاعصاب ، الذي لم يرهب الرصاص وهو يقاتل على الجبهة الاسبانية وما اثنته تجربته القاسية في معسكر اعتقال بفرنسا ، ان تراه وقد وهن امام عصا بيد الجستابو وانهار لكي ينقذ جلده . اي شجاعة مزيفة هذه التي تكفي حفنة عصي لتمحوها ! شجاعة مزيفة كأيمانه . لقد كان وهو وسط الاخرين ، حين كان محاطا بالرفاق الذين يفكرون مثله . كان قويا لانه كان يفكر بهم . اما الان وهو معزول ، وحيد ، يضغط عليه العدو بشدة فقد انهارت كل مقاومة لديه . لقد اضاع كل شيء لانه اخذ يفكر بنفسه وضحى برفاقه لينقذ جلده . لقد تحول الى جبان ومن جبان الى خائن .

لم يقل لنفسه انه كان من الافضل له ان يموت على ان يكشف خفايا الوثائق التي وجدت بحوزته . لقد أفشى سرها وسلم الاسماء واعطاهم عنوان شقة سرية وجاء بعملاء الجستابو الى اجتماع مع شيش وبعث بهم الى شقة دفوراك حيث كان هناك اجتماع مع فاكلافيك وكروباشيك . اعترف على أنيكا وحتى على ليدا–تلك الفتاة الشجاعة الوفية التي كانت تحبه . لقد كانت بضعة ضربات كافية لكي يقول نصف ما يعرفه . وحين حسب اني قد مت ولم يعد هناك من يحاسبه اعترف لهم بالبقية الباقية .

وحين فعل كل هذا فانه لم يؤذني شخصيا . فقد كنت عندها في قبضة الجستابو فما الذي يمكنه ان يكون أكثر أذى من ذلك ؟ بالعكس ، كان اعترافه شيئا ملموسا قام عليه التحقيق بأكمله شيئا اشبه ببداية سلسلة كانت حلقاتها الاخرى بيدي وكان يسعدهم تماما ان يكتشفوها وكان هذا هو السبب الوحيد الذي من اجله ابقيت على قيد الحياة بعد اعلان الاحكام العرفية ومعي عدد كبير من افراد المجموعة . ولكن واقع الامر ان أية مجموعة ماكان لها ان تكون هناك لو أن ميريك أدى واجبه كما ينبغي . وكنا قد متنا نحن الاثنين منذ وقت طويل وكان الاخرون قد عاشوا وواصلوا العمل بعد ان نكون نحن قد

فارقنا الحياة .

الجبان يخسر اكثر من حياته نفسها . فها هو قد ضاع وتخلى عن الجيش المجيد وكسب احتقار أقذر الاعداء . وحتى وان كان حيا . فانه ماعاد حيا لانه قد طرد نفسه من الجماعة . لقد حاول ان يصلح شيئا مما اقترفه ولكنه لم يحقق اي شيء بعد ذلك ابدا–وهذا امر فظاعته في السجن أمر من اي مكان أخر.

السجين والوحدة–لكم تقترن هاتان الفكرتان غالبا . وهذا خطأ فادح . فالسجين ليس وحيدا . السجن حياة جماعية عظيمة ولا يستطيع اقسى انواع العزل ان تنتزع السجين من هذه الحياة الا اذا اراد هو ذلك . ان الضغط الذي تتعرض له هنا اخوة المضطهدين تشتد وتتعزز وتصبح اكثر حساسية . انها تنفذ من خلل الجدران التي تحيا وتتكلم وتبث الاشارات . هذه الاخوة تحتضن الزنزانات كلها في رواق واحد يربطه العذاب المشترك والخدمة المشتركة وفراش سجناء الخدمة وانصاف ساعات الرياضة الصباحية . حيث تكفي كلمة واحدة أو اشارة واحدة لنقل الاخبار او انقاذ حياة انسان . هذه الاخوة توحد السجن برمته بالرحلات المشتركة الى غرف التحقيق في الوقت الذي ينقضي معا في (السينما) وفي العودة المشتركة . انها اخوة كلمات قليلة واعمال جليلة ، اذ ان مجرد ضغط يد او سيجارة تعطى سرا تحطم القفص الذي زجوك فيه ، وتحررك من الوحدة التي من شأنها تحطيمك . وللزنزانات اذرع تشعر بها وهي تبعد عنك الانهيار وانت تعود من التحقيق تعاني سكرات الموت . وهي تطعمك في حين يطاردك الاخرين للموت جوعا . وللزنزانات عيون تتطلع اليك وانت تذهب الى حتفك وانت تعلم ان عليك ان تذهب غير هياب . لانك أخوهم وانك ملزم ان لا تضعفهم باية خطوة خائرة . هذه اخوة يعمدها الدم لكنها لاتقهر . ولو لاها ما امكنك ان تتحمل عشر ما قسم عليك لاأنت ولا اي واحد اخر .

ان مصطلح (غرفة ٤٠٠) الذي ظهر في مطلع هذا الفصل غالبا ما سيتكرر في سياق هذه القصة ، ان كنت سأتمكن من اكمالها (لاننا هنا لا نعرف لا اليوم ولا الساعة) . لقد عرفتها غرفة ولم تكن ساعاتي الاولى فيها ولا انطباعاتي الاولى عنها مسرة . لكنها لم تكن غرفة بل مجموعة . مجموعة جذلة ومقاتلة .

بدأت (غرفة ٤٠٠) عام ١٩٤٠ وقت ان أتسع نشاط قسم مكافحة الشيوعية بدرجة كبيرة . كانت فرعا في (بيت السجن) و (السينما) فرع من غرفة الانتظار لمن ينتظرون التحقيق مخصصة للشيوعيين من اجل تجنب نقلهم من الطابق الارضي الى الطابق الرابع

لدى كل سؤال وابقائهم باستمرار في متناول ضباط تحقيق الجستابو . كانت سبيلا للاقتصاد في العمل–كانت هذه هي الغاية من ورائها .

لكن ضع سجينين معا – خاصة ان كانا شيوعيين وسترى بعد خمس دقائق مجموعة قد قامت تفسد كل الخطط . عام ١٩٤٢ لم يكن لها اسما آخر سوى (المركز الشيوعي) . ومنذ ذلك الحين شهدت تبدلات كثيرة . لقد مر الاف والاف من الرفاق رجال ونساء على مصطباتها الواحد تلو الاخر . لكن شيئا واحدا فيها ماتبدل هو روح الجماعة المكرسة للنضال والمؤمنة بالنصر .

لقد كانت (غرفة ٤٠٠) خندقا متقدما الى مسافة بعيدة يحيطه العدو من كل جانب تقصفه نيران كثيفة . ولكن لم يفكر لحظة واحدة بالاستسلام . فوقه يخفق العلم الاحمر . وفيه ايضا يظهر تضامن شعب باسره يقاتل من اجل تحرره .

وتحت في (السينما) يقطع حرس الأس اس اثناء الدوريات المكان جيئه وذهابا بجزماتهم العسكرية الثقيلة ويصرخون بك لمجرد ان تطرف عينك . وهنا في (غرفة ٤٠٠) المسؤولون عن حراسة السجناء هم اما مفتشون تشيكيون أو عملاء لمقر قيادة الشرطة . فمن دخلوا في خدمة الجستابو كمترجمين طوعا او باكراه رؤسائهم او يؤدون واجباتهم كعملاء للجستابو أو كتشيكيين كوكشيء مابين الاثنين . وفي هذا المكان لست مرغما على الجلوس متأهبا يداك على ركبتيك وعيناك ثابتتان أمامك باستقامة . هنا يمكنك الجلوس بحرية اكبر وتتطلع حولك وتعطي اشارات في يديك ويمكنك ان تفعل ما هو اكثر من ذلك تبعا لانواع المفتشين الثلاثة ومن منهم هو في الواجب .

لقد كانت (غرفة ٤٠٠) مكانا يمكنك ان تستمد منه اعمق بصيرة عن الكائن الذي يسمى الانسان . ان القرب من الموت يكشف عري كل انسان سواء من يضعون على أذرعهم اليسرى الشارة الحمراء للشيوعيين اثناء التحقيق . أم من يشتبه بتعاونهم مع الشيوعيين ام اولئك الذين يتولون الحراسة ممن يحضرون احيانا جانبا من التحقيق في الغرف المجاورة . هناك اثناء التحقيق يمكن للكلمات أن تكون درعا او سلاحا . اما في (غرفة ٤٠٠) فلم يكن هناك من يختبئ وراء الكلمات . فليس المهم هنا ماتقوله بل ماتنطوي عليه لانك هنا لن تستطيع ان تحفظ الا ماهو جوهري فيك . وكل ماهو ثانوي ملطف

مضعف او مزخرف لاسس شخصيتك يتلاشى ويقتلعه الاعصار الذي يسبق الموت . ولايبقى الا الموضوع المجرد والاصيل فالمخلص يقاوم والغادر يخون والضعيف يتهاوى تحت اليأس والبطل يقاتل . في كل انسان هناك ضعف وقوة شجاعة وجبن ، صمود واستسلام ، نقاء وقذارة . لكن هنا شيء ما او أخر وحده يمكن ان يبقى . أما هذا او ذاك وما ان يحاول احد دون بصيرة ان يوازن بين الاثنين فسيكون اسوء ممن يرقص في جنازته يحمل الدفوف بيديه وفي قبعته ريشة صفراء .

لقد كان هناك من يشبه هؤلاء بين السجناء ومثلهم ايضا بين المفتشين والعملاء التشيكيين . فهناك من يشعل أثناء التحقيق شمعة الى ربه إله الرايخ ويشعل في غرفة ٤٠٠ شمعة اخرى للشيطان البلشفي . امام الضابط الالماني يحطم اسنانك لينتزع منك أسم الذي تتصل به وفي (غرفة ٤٠٠) يبدو أنيساً تماما حتى انه ليقدم اليك كسرة خبز تنقذك من جوع . اثناء مداهمة البيوت ينهب كل ما في شقتك وفي (غرفة ٤٠٠) يعطيك نصف سيجارة من اسلابه ليبدي لك تعاطفه . هناك أخرون وما هم الا تنويعا اخر لحدما لنفس الصنف ممن لا ينزل الاذى بك من نفسه ومع هذا فهو لايقدم لك الا عونا اقل وهؤلاء يفكرون دوما بجلدهم فقط . لقد حولتهم حساسيتهم الى باورمترات سياسية ممتازة . أهم متزمتون ورسميون جدا ؟ لك ان تثق ان الالمان يزحفون على مستالينغراد . اهم انيسون وعلى استعداد لتبادل الحديث مع السجناء ؟ الوضع جيد : ان الالمان قد ردوا على اعقابهم في ستا لينغراد بشكل واضح . هل شرعوا يقصون عليك اصل عوائلهم التشيكية العريقة وكيف ارغموا على خدمة الجستابو ؟ رائع : الظاهر ان الجيش الاحمر يتقدم وراء روستوف هناك اخرون ايضا من نفس الصنف يضعون ايديهم في جيوبهم وهم يرونك تغرق ولكنهم يمدون اياديهم اليك برغبة حين يروك قد وصلت الضفة لوحدك .

مفتشون من هذا الصنف كانوا على وعي بالروح الجماعية لغرفة ٤٠٠ وقد جهدوا لان يتعاونوا معها لانهم قدروا قوتها . الا انهم لم ينتموا اليها مطلقا . وكان هناك صنف أخر ممن لم تكن الجماعة لتعنيه ابدا : استطيع ان اطلق عليهم اسم القتلة . لكن القاتل ينتمي الى الاسرة البشرية ان هذه الوحوش الناطقة بالتشيكية تعذب السجناء التشيكيين والعصي بايديها لذلك الحد الذي يأنف منه حتى الكثير من الضباط الالمان . وهم عاجزون عن

التظاهر حتى بمصالح كاذبة لامتهم او الرايخ . انهم يعذبون ويقتلون لمجرد التلذذ . انهم يحطمون الاسنان وطبلات الاذن يسحقون الاعين ويركلون الاعضاء الجنسية يسلخون رأس من يعذبونهم ثم يضربونهم حتى الموت لمجرد القسوة لاغير . كل يوم تراهم . كل يوم عليك ان تحتك بهم وتتحمل وجودهم الذي يملأ الجوكله بالنجيع والصراخ ولا يعينك على ذلك الا ايمانك الراسخ بانهم لن يفلتوا من القصاص العادل حتى ولو اجهزوا على كل الشهود على جرائمهم .

وعلى نفس الطاولة يجلس اليهم جنبا الى جنب اخرون ينتمون الى نفس الصنف في الظاهر . اناس من الانصاف ان تخط لهم صفة الانسان بحروف كبيرة . اناس حولوا انظمة السجن لصالح السجناء اناس هم الذين ساعدوا على خلق جماعة (غرفة ٤٠٠) وهؤلاء هم الذين ينتمون اليها بكل جوارحهم وبكل الشجاعة التي عندهم . ان أعظم مايتحلون به تكمن في واقع انهم لم يكونوا شيوعيين . على العكس فقد عملوا فيما مضى في الشرطة التشيكية ضد الشيوعيين . الا انهم ادركوا سر قوة الشيوعيين ادركوا مالهم من اهمية للامة وهم يرونهم يناضلون ضد الاحتلال ومنذ تلك اللحظة خدموا بأمانة وساعدوا كل مابقي وفيا حتى ولو على مصطبة السجن . ربما كان العديد من المناضلين خارج السجن قد ترددوا لوكانت لديهم ادنى فكرة عن الاهوال التي تنتظرهم وقت ان يقعوا في قبضة الجستابو . والذين هم هنا يرون هذه الاهوال بأم اعينهم باستمرار كل يوم كل ساعة وفي كل يوم وساعة يقبعون بانتظار ان يضعوا جنبا الى جنب مع غيرهم من السجناء ويتعرضون الى تجربة اشد فتكا مما تعرضوا له حتى الان . ومع هذا فانهم لم يعرفوا التذبذب لقد ساعدوا على انقاذ حياة الالوف وخففوا من مصاب أولئك الذين لم يكن هناك رجاء في انقاذ حياتهم . الى هؤلاء ينبغي ان يقلد لقب البطل وبدون عونهم ماكان بامكان (غرفة ٤٠٠) ان تصبح ماأصبحت عليه ومثلما عرفها الوف الشيوعيين ، مكان للنور في دار مظلمة خندق في ظهر العدو ومركز للنضال في سبيل الحرية في مركز المحتلين ذاته .

الفصل الخامس
شخوص واشكال

لست اطلب الا شيئا واحدا : عليكم . انتم يامن ستجتازون هذه المحنة احياء . أن لا تنسوا . لا تنسوا الطيب ولا الشرير . اجمعوا باناة البينة عن كل ضحية . فسيأتي وقت يكون فيه الحاضر ذكرى وسيتحدث الناس عن عصر عظيم وعن ابطال مجهولين صنعوا التاريخ . وليكن معلوما انهم ما كانوا ابطالا مجهولين وانهم بشر لهم اسماء وقسمات وتطلعات وآمال وان عذابات اصغر هؤلاء شأنا ما كانت اقل من عذابات أول من خلدت اسماؤهم . وليكن كل اولئك اعزاء عليكم دوما . مثل اناس تعرفونهم عن قرب . اناس من صلبكم ، مثلكم .

لقد ضيعت عوائل من الابطال برمتها . فتعلموا ان تملأكم المحبة لواحد من اولئك على الاقل . كأنه ابنكم او ابنتكم ، ولتشعروا بالاعتداد به بوصفه انسانا عظيما وهب حياته من اجل المستقبل . كل من دافع بدمه عن المستقبل بامانة وسقط في سبيل بهائه . انما هو شخص منحوت في صخر . اما من اراد ان يبني من تراب الماضي سدا ضد طوفان الثورة ، ان هو الا شكل مصنوع من خشب متعفن . حتى لو كانت كتفاه مثقلة اليوم بنياشين المجد . ولكن حتى هذه الاشكال ينبغي ان ترى وهي تعيش خستها وحقارتها ، وحشيتها وغباءها . لانهم مادة ستساعد ابناء المستقبل على تصور هذه المرحلة التي نعيشها .

وما سأرويه ان هو الا مادة . مجرد افادة شاهد عيان . انها مجرد مواد متناثرة جمعتها من مشاهداتي العيانية في قطاع صغير . ومن دون اي منظور . ولكنها تنطوي على ملامح تشابه حقيقي : للعظيم والتافه ، للشخوص والاشكال .

الزوجان جيلينيك

هما جوزيف وماري . هو سائق حافلة وهي خادمة . عليكم ان تعرفوا شقتهما . اثاث عصري ، صقيل ، بسيط . خزانة كتب . تمثال صغير . صور على الجدران وهي نظيفة

نظافة لا تصدق . لدرجة يمكنكم القول ان ماري وضعت كل روحها فيها وانها لم تعرف اي شيء ابدا خارج هذا العالم الصغير . ومع ذلك فقد مرت سنوات طويلة منذ ان بدأت العمل في الحزب الشيوعي والاحلام تخامرها في العدالة كما تفهمها هي . وعمل كلاهما بتفان وهدوء ولم ينكمشا حين اثقلها الاحتلال بمسؤوليات جسيمة .

بعد ثلاث سنوات من الاحتلال اقتحمت الشرطة منزلهما . واصطفا ، احدهما جنب الاخر ، وايديهما مرفوعة فوق الرأس .

١٩ ايار ١٩٤٣

الليلة يقتادون حبيبتي جوستينا الى بولنده «للعمل» . الى الاشغال الشاقة يقتادونها لكي تموت هناك بالتيفوس . ربما لم يبق لي من العمر الا بضعة اسابيع ، ربما شهرين او ثلاثة اشهر . ويبدو مما سمعت ان اضبارتي قد قدمت الى المحكمة . ربما اربعة اسابيع اخرى من التحقيق في بانكراك وبعدها شهرين او ثلاثة اشهر وتحين النهاية . ولن ينجز هذا التقرير . ولكنني سأحاول مواصلته ، اذا توفرت الفرصة امامي في هذه الايام القليلة الباقية . اليوم لا استطيع . اليوم رأسي وفؤادي يمتلئان بجوستينا ، هذه المخلوقة الكريمة ، الدافئة ، رفيقة العمر النادرة والوفية ، هذا العمر العاصف والمضطرم ابدا .

كل امسية كنت انشدها تلك الاغنية التي طالما احببت : اغنية تحكي عن الاعشاب المزرقة للسهوب ، المدوية بالاساطير المجيدة ، لمعارك الانصار . عن امرأة قوزاقية قاتلت في سبيل الحريه جنبا الى جنب مع الرجال ، عن اقدامها واستشهادها في احدى المعارك (رقدت عاجزة عن ان ترفع رأسها عن ارض الوطن) (اواه ، يا رفيقة النضال !) . اية قوة تنطوي عليها تلك المخلوقة الصغيرة ، ذات القسمات المنحوتة بصلابة والعينين الطفوليتين الواسعتين المفعمتين حنوا ! لقد صنع منا النضال والفراق المستمر عاشقين ازليين عاشا ، لأمرة وحسب ، بل مئات المرات ، اللحظة المتوقدة لاول غزل واول تعارف . وقد وحدت قلبينا نبضة واحدة ونفس واحد كنا نستنشقه في ساعات نعيمنا وساعات مخاوفنا ، في الجوى والاسى .

ولسنوات كنا نعمل معا ونمد يد العون لاحدنا الاخر ، مثلما يعين رفيق رفيقا اخر تماما ، ولسنوات وهي اول من يقرأ اعمالي واول من ينقدها وكم كان يشق على ان اكتب لو اني ما احسست بنظرتها المحبة خلفي ، ولسنوات وقفنا جنبا الى جنب في نضالاتنا ، التي ما كانت قليله ، ولسنوات رحنا نجوس الاماكن التي احببناها ، يد بيد . لقد ذقنا مصاعب كثيرة وتذوقنا متعا لا حصر لها ، لاننا كنا اغنياء من غنى الفقراء ، ذلك الغنى الداخلي .

جوستينا ؟ انظر . هذه هي جوستينا :

كان ذلك بعد اعلان الاحكام العرفية ، حوالي منتصف حزيران من العام الماضي ، حين رأتني اول مرة منذ اعتقالي قبل ستة اسابيع ، بعد كل تلك الايام الحافلة بالالم وهي وحيدة في زنزانتها . تتأمل في الاخبار التي تعلن عن موتي . لقد استدعوها لتضعف عزيمتي .

وخاطبها رئيس القسم بحضوري قائلا (اقنعيه ، اقنعيه ان يكون عاقلا . اذا كان لا يفكر بنفسه ، فليفكر بك على الاقل . امامك ساعة واحدة لتحزمي امرك . واذا ظل مصرا ، فستعدمان معا هذه الليلة . انتما الاثنان معا .)

وداعبتني بعينيها وردت ببساطة :

(لا يخيفني هذا ، ايها الضابط . فهذا اخر ما اتمنى . اذا كنتم ستعدمونه فخذوني انا ايضا الى الموت معه !)

اترون ، هذه هي جوستينا ! حب وتفان .

ايه ، جوستينا ، ان بوسعهم ان يسلبوا الحياة منا اليس كذلك ، ولكنهم لن ينتزعوا منا ابدا شرفنا وحبنا .

ايه ايها الناس . هل بوسعكم ان تتصوروا كيف سنعيش لو قدر لنا ان نلتقي ثانية الواحد بالاخر بعد كل هذا الحرمان ؟ لو قدر لنا ان نلتقي ثانية في حياة حرة ، بهية بحريتها وروحها المبدعة ؟ حين يطل فجر ذلك اليوم الذي طالما تطلعنا اليه وناضلنا من اجله والذي سنفتدي به حياتنا ؟ ايه حقا ، فحتى ونحن اموات فسنبقى نحيا في مكان ما في جزء صغير من سعادتكم العظمى . لاننا وضعنا حياتنا فيها ! وهذا ما يفعمنا غبطة برغم اسى الفراق .

لم يسمحوا لنا حتى ان نتوادع ونتعانق وان نتصافح . وحدها مجموعة السجن ، التي تصل ساحة شارل ببانكراك ، كانت تزودنا بالانباء المتعلقة بمصير احدنا الاخر .

تعرفين يا جوستينا ، كما اعرف انا ، اننا قد لا نلتقي ثانية ابدا . ومع هذا فاني اسمعك تنادين من بعيد : وداعاً يا حبيبي !

وداعا يا جوستيناي !

وصيتي

لم املك شيئا غير مكتبتي . وهذه دمرها الجستابو.

لقد كتبت كثيرا من المقالات الثقافية والسياسية . تحقيقات ودراسات . محاضرات ادبية ومسرحية . وكثيرا من هذه بنت يومها وقد انتهت معه . فاتركوها وشأنها . لكن قسما منها ملك للحياة . وكنت امل ان تقوم جوستينا بجمعها . ولكن الامل ضئيل في ذلك . ولهذا اطلب من افضل الرفاق . لادا شتول . ان ينشرها بخمسة كتب :

١ – المقالات والمساجلات السياسية .

٢ – مقالات مختارة تتناول الشؤون الداخلية .

٣ – مقالات مختارة عن الاتحاد السوفياتي .

٤ – ٥ مقالات ودراسات عن الادب والمسرح .

ويمكن العثور على اغلب هذه في (تفوربا) و (رودي برافو) وبعضها في (كمين) . (برافن) . (بروليتكولت) . (دوبا) . (سوسياليستا) . (افانتي) وغيرها .

اما المخطوطة المتعلقة بدراستي عن يوليوس زيبر فهي بحوزة الناشر جيرجال (الذي احبه على شجاعته الاكيدة التي نشر بها كتابي – بوزينا نيمكوفا خلال فترة الاحتلال) . في حين ان دراستي عن سابينا وملاحظتي حول جان نيرودا فهي في مكان ما من بيوت التي عاش فيها ال جيلينيك فيسوسل وسوشانيك . ممن اصبح معظمهم الان في عداد الموتى .

وكنت قد شرعت بكتابة رواية عن جيلنا . فصلان منها في منزل والدي . اما البقية فربما اتلفت . وقد رأيت بعض مخطوطات قصصي بين ملفات الجستابو. وللمؤرخ الادبي الذي سيأتي في المستقبل . اوصي بمحبتي لجان نيرودا . انه اعظم شعرائنا ممن ظلوا يستشرفون المستقبل ابعد منا . ومع هذا . فلم توضع عنه اية كتب تعبر عن فهمها وتقديرها له . وما ينبغي ان يكتب عنه هو نيرودا البروليتاري . لقد الصقوا بذيل معطفه نشيدا رعويا لمالاسترانا ولم يعرفوا انه بنظر حي مالاسترانا «الرعوي» العتيق ذاك . كان (يعد وغدا) وانه ولد في ضواحي سميخوف . في وسط عمالي وانه من اجل الوصول الى مقبرة مالاسترانا سعيا وراء (زهور من مقبرة) . فقد كان عليه ان يمر بمصانع انغهوفر .

ومن دون هذا . يستحيل فهم نيرودا . ابتداء من كتابه (زهور من مقبرة) حتى مسلسلته الروائية (اول ايار ١٨٩٠) . ان الجميع بما فيهم سالدا ذلك الرجل النافذ البصيرة – يرون في العمل الصحفي لنيرودا ما يشبه العائق امام عمله الشعري . وهذا سخف ! فبسبب كون نيرودا صحفيا بالذات . هو ما مكنه ان يكتب عملا رائعا مثل (غنائيات وعاطفيات) او (اناشيد الجمعة) والجزء الاكبر من كتاب (موضوعات بسيطة) . ربما كانت الصحافة تنهك المرء وتمنعه من التركيز . لكنها تشده الى قارئه وتعلمه ان يبدع حتى في الشعر – شريطة ان يكون صحفيا يتصف بالاستقامة طبعا كنيرودا . ولو كان نيرودا – دون صحافة تتناول الحياة اليومية . لتمكن ربما من كتابة وفرة من دواوين الشعر . لكن واحدا منها ما كان يمكنه ان يبقى حيا عبر قرون مثلما ستحيى مؤلفاته .

قد يكمل احد كتاب (سابينا) . فهو كتاب يستحق الانجاز .

ولوالدي جزاء محبتهم ونبلهم البسيط . اردت ان اؤمن خريفا مشمسا لهما بفضل كل العمل الذي قمت به . وليس لهم فقط . وارجو ان لا يشوه ذلك جراء بعدي عنهما . (العامل فان . والعمل لا يموت) وفي الدفء والنور الذي يحيطان بهما . ساكون على الدوام بقربهما . ارجو شقيقتي . ليبا وفيركا ان يعينا ابنتي وامي على نسيان الفراغ الذي حل بعائلتنا بما ينشدانه لهما . لقد فاض بهما الدمع حين قدما لزيارتنا في قصر بيتشيك . لكن الفرح يعيش فيهما ومن هنا محبتي لهما ومن هنا تلك المحبة التي نشترك فيها . انها لزراعتان للفرح . فليكونا مصدر فرح لا ينضب ابدا .

وللرفاق الذين ستكتب النجاة لهم في هذه المعركة الاخيرة . أشد بحرارة عليهم وللذين سيأتون من بعدهم . بالاصالة عن نفسي ونيابة عن جوستينا . لقد قمنا باداء واجبنا .

واكرر ثانية : لقد عشنا للفرح . وخضنا النضال من اجل الفرح وفي سبيل الفرح نموت . فلا يربط الحزن اذن باسمينا ابدا !

ي . ف .

١٩٤٣/٥/١٩

٢٢ ايار ١٩٤٣

اكملت ووقعت . امس انتهى التحقيق القضائي . والامور تسرع اكثر مما توقعت . ويبدو انهم في عجلة من امرنا . والمتهمان في القضية نفسها هما ليدا بلاخا وميركو . لقد باءت نذالته بالخذلان ولم تنفعه .

اثناء التحقيق القضائي كانت الامور تجري بدرجة من الدقة والرزانة الى حد الجمود . اما في الجستابو فقد كان فيها شيء من الحياة . مروعة ولكنها مع ذلك تنبض بالحياة . كان فيها هناك شيء حماسي ، حماسة المناضل من جانب و حماسة الصيادين ، الضواري او قطاع الطرق المفضوحين ، من جانب اخر . وبعض اولئك في الجانب الاخر ، كانوا على يقين من الايمان . اما هنا ، في التحقيق القضائي ، فليست الا دائرة . وفطائر الكيك الكبيرة المحلاة بالصلبان المعقوفة على ياقات القاضي تدلل على الايمان الذي لا وجود له عند هذا الرجل . انهم درع يحتمي خلفه خدم موظفون صغار مساكين ، متلهفين بطريقة ما على النجاة بجلودهم في وقت كهذا . ومثلهم تجاه المتهم لا هو الطيب ولا بالخبيث . ومثلهم لا يبتسم او يقطب . انهم يؤدون واجبا رسميا . ليس فيهم نقطة دم تجري ، بل مجرد ماء خفيف .

لقد دونوا ، وقعوا وثنوا احكام القانون لتناسب الوضع . واسناد قرار الاتهام ما يقرب من ست مرات الى الخيانة العظمى ، التامر ضد الرايخ والتخطيط لانتفاضة مسلحة وغير ذلك مما لا اعرفه . وكل تهمة منها كافية بحد ذاتها .

لقد قاتلت ثلاثة عشر شهرا من اجل حياتي وحياة الاخرين . بجرأة ودهاء . ان برنامجهم ينطوي على «الدهاء النوردي» واحسب اني بارع في ذلك ايضا بقدرهم . انني اخسر فقط لانهم اضافة الى ذلك ، يمسكون الفأس بيدهم .

هذا النضال انتهى اذن . والان جاء الانتظار . اسبوعان او ثلاثة ثم ينتهي قرار الاتهام ، ثم السفر الى الرايخ وانتظار المحكمة ثم الحكم واخيرا ١٠٠ يوم قبل تنفيذ الاعدام . هذه هي الافاق . اربعة شهور ربما . او ربما خمسة . وفي غضون ذلك يمكن ان تتبدل اشياء كثيرة . في غضون ذلك كل شيء يمكن ان يتبدل . ممكن . ومن هذه

الزاوية لا استطيع ان احكم اكثر من ذلك . ومع ذلك فان تسارع الاحداث في الخارج قد يعجل حتى في نهايتنا . وهكذا يتعادل كل شيء .

انه سباق بين الامل والحرب . سباق بين الموت والموت . من هو الذي سيأتي اولا : موت الفاشية او موتي ؟ هل اكون انا وحدي من يواجه هذا السؤال ! ابدا لا . لان عشرات الوف السجناء يسألونه كذلك ، ومثلهم ملايين الجنود وعشرات ملايين الناس في كل ارجاء اوروبا والعالم باسره . بعضهم يساوره امل اكبر ، اخرون امل اقل . لكن الامر كله جلي تماما . ان الاهوال التي تغرق بها الرأسمالية المتهرئة العالم باسره ، تهدد الجميع على نحو شامل . ان مئات الاف الناس – واي الناس ! – سيسقطون ايضا ، قبل ان يكون باستطاعة من سينجون ان يجيبوا : لقد نجوت من الفاشية . لقد اضحى الامر الان مسألة اشهر لا غير وسرعان ما سيكون مسألة ايام لا غير . لكنها هذه الايام هي التي ستكون الاقسى قطعا . ولقد فكرت دوما كم هو محزن ان يكون المرء الجندي الاخير الذي يصاب في اخر لحظة من الحرب باخر طلقة في القلب . ولكن لا بد من احد يكون هو الاخير . ولو اني عرفت باني ساكون هذا الاخير ، لاندفعت قدما دون تردد .

سوف لن تسمح لي الفترة الوجيزة التي ما زالت امامي في بانكراك صياغة هذا التقرير بالشكل المطلوب . على ان اكون اكثر ايجازا . وسوف يكون شهادة للناس اكثر مما لعصر باكمله . وهذا في رأيي هو الشيء الاكثر اهمية .

لقد بدأت هؤلاء الاشخاص بالزوجين جيلينيك ، انسانين بسيطين لا يبدون لك وكأنهم ابطال في الظروف المعتادة . ولحظة اعتقالهما ، اصطفا جنبا الى جنب وايديهما مرفوعة اعلى الرأس ، هو شاحب وهي متوردة تحت الصدغين من مرض السل ، في عينيها نظرة اقرب الى الفزع وهي ترى كيف قلب الجستابو بخمسة دقائق حسن ترتيبها النادر الى فوضى . وعندها استدارت برأسها ببطء الى زوجها وسألته :

– وماذا سيحدث الان يا جو؟

وكان هو دوما قليل الكلام ، لا تواتيه الالفاظ بيسر والكلام يثير اضطرابه . الان رد عليها بهدوء ودون مشقة :

– سنموت يا ميغ .

ما صرخت او ترنحت ، فقط وضعت يدها على يده بحركة جميلة ، على مرأى من فوهات المسدسات التي كانت مصوبة نحوها طيلة الوقت . ومن اجل هذا كسبت له ولنفسها اول ضربة في الوجه . مسحت خدها وبدت مندهشة لحد ما من هؤلاء الدخلاء وعلقت بطريقة كوميدية تقريبا :

– يا للفتيان الحلوين ،

ثم ارتفع صوتها ،

– يا للفتيان الحلوين . . . و . . . ويا لوحشيتهم الضارية .

لقد وصفتهم بصواب . وبعد ساعات قلائل اخرجوها من مكتب ضابط «التحقيق» وقد ضربت حد الاغماء . لكنهم لم يحصلوا على اي شيء منها . لا هذه المرة ولا في المرات اللاحقة .

لا اعرف كل الذي مر عليهما خلال الفترة التي كنت فيها ملقى في زنزانتي مريض لدرجة يتعذر استدعائي للتحقيق . لكني اعلم انهما طيلة تلك الفترة لم ينطقا بحرف واحد . وانتظراني . وكم من مرة بعد هذا قيد جو ، ذراعاه وساقاه موثقة خلف ظهره وكم من مرة ضرب وضرب وضرب . لكنه لم ينبس ببنت شفة حتى امكنني ان اخبره ، او اشير له بالاقل بنظرة ، ما ينبغي عليه ان يقوله او كيف ينبغي له ان يجيب ، حتى يكون بوسعنا ان نضلل الذين يحققون معنا .

كانت هي حساسة لدرجة الكآبة . هكذا كنت اعرفها قبل اعتقالها . ولكن طيلة الوقت الذي كنا فيه في الجستابو ، لم ار في مآقيها دمعة واحدة قط .

كانت تعشق منزلها . مع هذا ، حين كان الرفاق في الخارج ، رغبة في اسعادها ، يطمأنونها بكلمة بانهم يعرفون من سرق اثاثها وانهم قد وضعوه تحت مراقبتهم ، كانت تجيب :

– الى الجحيم بالاثاث . لماذا يضيعون وقتهم في ذلك وامامهم امور اكثر اهمية عليهم الانتباه اليها ، الى جانب ان عليهم ان يعملوا بدلا عنا كذلك . ينبغي ان يكون هناك

تنظيف تام ، قبل كل شيء . ولو قدر لي ان اعيش فسأتدبر امر الدار بنفسي مباشرة .

ذات يوم اقتادوهما معا بعيدا ، كل الى مكان مختلف . وعبثا حاولت معرفة مصيرهما . فالناس وهم في قبضة الجستابو يختفون دون ان يتركوا اثرا . يتناثرون مثل البذور في الاف المقابر . اي حصاد سينبت من هذا البذار المروع !

كان وداعها الاخير :

– ارجو ان لا يشعر احد بالاسى من اجلي او ان يساوره الخوف بسببي . لقد اديت ما ترتب علي من واجب كعاملة وسأذهب الى الموت على هذا النحو ايضا .

ما كانت «سوى خادمة» . وما كانت تملك تعليما كلاسيكيا وما كانت تدري كيف قيل ذات مرة في الماضي :

ايهذا الجواب ، بلغ الاسبارطيين اننا نرقد هنا موتى ، لان القوانين امرتنا بذلك .

الزوجان فيسوسيل

عاشى في ذات مجموعة الشقق ، جوار شقة اسرة جيلينيك . هما ايضا جوزيف وماري . عائلة موظف صغير ، اكبر سنا من جاريهما . كان شابا نحيلا من نوسل عندما اخذوه الى الجيش وارسلوه جنديا الى الحرب العالمية الاولى . وما هي الا اسابيع قليلة حتى عادوا به ثانية وقد تحطمت ركبته ، التي لم تشفى مرة اخرى ابدا . وتعارفا على بعضهما في احدى المستشفيات العسكرية في برنو ، حيث كانت هي تعمل ممرضة هناك . كانت تكبره بثماني سنوات وقد خلفت وراءها زواجا فاشلا . وبعد الحرب تزوجت من جو . وبقي في علاقتها به دوما شيء من روح الممرضة ، تبني امومي . لم يكونا بروليتاريين بالولادة ولم يشكلا عائلة بروليتارية . وكان طريقهما الى الحزب اكثر تعقيدا ومشقة لحد ما – ولكنهما وصلا اليه . وكما هو الوضع في كثير من حالات كهذه ، بدأ الطريق عبر الاتحاد السوفياتي . وقبل فترة طويلة من الاحتلال ، كانا قد عرفا مايريدان وكانا يخفيان الرفاق الالمان في شقتهما .

وفي اصعب الاوقات ، بعد غزو الاتحاد السوفياتي وخلال الفترة الاولى من الاحكام العرفية عام ١٩٤١ . كان اعضاء اللجنة المركزية يلتقون في شقتهم . وكان هونزا زيكا

وهونزا تشيرني ينامان هناك . وكنت انا اكثر الكل تردداً ومبيتا هناك . هنا كتبنا (رودي برافو) واتخذنا كثيرا من القرارات الهامة وهنا تعرفت اول مرة على «كارل» – تشيرني . كانا دقيقين ويقظين على نحو مثابر ويعرفان على الدوام ماالذي ينبغي عمله بالضبط في الاوضاع المفاجئة . التي غالبا ماكانت تقع في العمل السري . وكانا يعرفان كيف يتصرفان في مثل هذه الحالات . الى جانب ذلك . فلم يكن بوسع احد ابدا ان يتصور ان هذا الموظف الصغير الشأن ، النحيل ذا الطبع المرح الذي يعمل «في دائرة السكك» وهذه «المدام الصغيرة» السيدة فيسوسيلوفا ، يمكن ان يتورطا بأي عمل يحرمه القانون . رغم ذلك فقد اعتقل بعد فترة قصيرة من اعتقالي وروعت عندما رأيته اول مرة . كم من الامور ستكون في خطر لو انه تكلم ! لكنه امسك لسانه . لقد جيء به هنا بسبب بضعة منشورات اعطاها لصديق ليقرأها – ولم يحصل الجستابو ابدا على اية معلومات اكثر من تلك المنشورات .

بعد شهور قلائل ، حين ادت قلة الانضباط من جانب بوكورني وبيكسوفا الى اكتشاف الجستابو ان هونزا تشيرني يعيش في منزل شقيقه فيسوسل ، قاموا باستجواب جو باسلوبهم المعتاد لمدة يومين ، لينتزعوا منه مكان آخر موهيغاني في لجنتنا المركزية . في اليوم الثالث جاء الى غرفة ٤٠٠ وجلس على الارض بحذر ، لان الجروح الطرية مروعة الالم عند الجلوس عليها . تطلعت اليه بقلق ، بتساؤل وتشجيع . ورد بجذل ، بذلك الطراز النوسلي اللابيدي :

– عندما يرفض الرأس ، فلا الفم ينطق ولا المؤخرة . لقد عرفت هذه العائلة الصغيرة جيدا ، وكم كان كل منهما ولوعا بالآخر وكم كانا يخشيان فراق احدهما الآخر حتى ولو ليوم واحد . وهاهي الشهور تمر الان – ما اعظم حزن زوجته في تلك الشقة الاليفة التي تطل على حي ميشيل ، وهي وحيدة في زمن كانت فيه الوحدة اسوء ثلاثة اضعاف من الموت . وما اكثر الاحلام التي نسجتها عن الكيفية التي يمكن بها ان تساعد زوجها وتستعيد تلك الانشودة الصغيرة التي كانا فيها يسميان احدهما الآخر ، بطريقة مضحكة لحد ما ، ماما وبابا . ومرة اخرى وجدت الطريق الوحيد : ان تواصل عملها ، العمل

من اجل نفسها ومن اجله هو .

ووجدت نفسها عشية السنة الجديدة ، ١٩٤٣ ، مازالت تجلس وحيدة عند المائدة ، وصورته في المكان الذي اعتاد الجلوس فيه وحين انتصف الليل ، قرعت كأسها بكأسه وتمنت له الصحة الجيدة ، تمنت عودته وشربت نخب حريته .

وما ان مر شهر آخر ، حتى كانت هي ايضا رهن الاعتقال . وارتعد كثيرون في غرفة ٤٠٠ . فقد كانت هي واحدة من اولئك المسؤولين عن الاتصال بالعالم خارج السجن . ومانبست ببنت شفة .

لم يعذبوها بالضرب ، فقد كانت على درجة من المرض لدرجة انها قد تموت بين ايديهم . فعذبوها بطريقة أشد فظاعة : عذبوها ذهنيا . قبل ايام من اعتقالها اقتادوا زوجها للعمل في بولندة . ولهذا خاطبوها الآن قائلين :

– اسمعي ، الحياة شاقة هناك . حتى للناس الاصحاء . وزوجك كسيح . لن يستطيع المقاومة هناك . سيموت في مكان ما هناك . ولن تريه ثانية ابدا . وكيف تكونين قادرة على البحث عن رجل آخر وانت في هذه السن ؟ لكن كوني عاقلة واخبرينا عما تعرفينه وسنعيده اليك ثانية في الحال .

سيموت في مكان ما هناك . ياحبيبي جو ! ماأشقاك ! الله اعلم اي نوع من الموت ستلاقيه ! لقد قتلوا شقيقتي ، وسيقتلون زوجي . وسأترك وحيدة ، وحيدة تماما ، فكيف ابدأ البحث عن رجل آخر ، اجل ، وانا في هذه السن . . . وحيدة ، مهجورة حتى نهاية عمري . . . وانا قادرة على انقاذه ، سيعيدونه الي . . . اجل ، ولكن بأي ثمن ؟ لن اكون عندها انا ، ولن يكون هو باباي . . .

ومانبست ببنت شفة .

واختفت في مكان ما من منافي الجستابو التي لا حصر لها . ولم تمض الا فترة وجيزة حتى جاءت الانباء عن وفاة جو في بولندة .

ليدا

اول مرة قصدت فيها منزل آل باكس كانت في احدى الامسيات . كانت جوزكا وحدها في البيت ومخلوق ضئيل ذو عينين حائرتين . يدعونه ليدا . كانت في الواقع ما تزال طفلة ، تسترق نظرات فضولية الى لحيتي . مسرورة لان الشقة قد حفلت بشيء من الاثارة غير المعهودة قد تبعث فيها شيئا من التسلية .

وسرعان ما اصبحنا صديقين . وتبين لدهشتي الشديدة ان هذه الطفلة كانت في الواقع قد بلغت التاسعة عشر من عمرها وانها كانت الاخت غير الشقيقة لجوزكا وان اسمها هو بلاشا (اي الخجولة) ، رغم انها لم تكن تحمل من اسمها الا القليل وهي تمارس التمثيل كهاوية للمسرح الذي كانت تحبه اكثر من اي شيء آخر .

واصبحت كاتم اسرارها وجعلني هذا ادرك اني لم اكن في الواقع الا مجرد سيد مسن . وحدثتني عن احزان صباها واحلام صباها وصارت تهرع الي ، كما لو الى حكم ، في مشاجراتها مع اختها او مع زوج اختها . وكانت حادة المزاج ، كما هي عادة البنات اليافعات ومدللة مثل كل الاطفال الذين يأتون آخر العنقود .

ورافقتني اول مرة حينما غادرت الدار ، بعد ستة اشهر لكي اقوم بنزهة قصيرة ان سيدا مسنا ، يعرج لاقل اثارة للشبهات وهو يخرج صحبة ابنته مما لو كان وحيدا . فالجميع يتطلعون اليها لا اليه . وكان هذا هو السبب الذي رافقتني من أجله في النزهة التالية . وكان هذا هو الذي جاءت معي من أجله الى اول موعد سري . وكان هذا هو السبب الذي دعاها لمصاحبتي الى اول شقة سرية . وبهذه الطريقة كما يقول قرار الاتهام الان – تطورت الامور من تلقاء نفسها : فاصبحت بالنتيجة ضابطة ارتباطي .

واحبت العمل . ولم تشغل ذهنها كثيرا بما يعنيه ذلك واي نفع سيأتي من ورائه . كان بالنسبة لها شيئا جديدا ومثيرا للاهتمام ، شيئا غير عادي ، فيه نكهة المغامرة . وكان هذا يكفيها وطالما كان الامر لا يتعدى الاشياء الصغيرة ، لم اشأ ان اطلعها على اي شيء اكثر من ذلك . فالجهل في حالة الاعتقال كان حماية افضل من الوعي بـ «الذنب» .

لكن ليدا تطورت . واضحت قادرة على القيام بما هو اكثر من مجرد الذهاب الى

منزل اسرة جيلينيك لتسليم بعض الرسائل الصغيرة . واصبح من الضروري لها في ان تعرف جلية الامر . وبدأت العمل . كان مدرسة ، مدرسة نظامية . وتعلمت ليدا بتفان وسرور . كانت في مظهرها ، ما تزال نفس الفتاة الجذلة ، الخلية القلب ، اللعوب لحدما ولكنها من الداخل كانت قد تبدلت . بدأت تفكر . ومن هنا تطورت .

وفي مجرى عملها تعرفت على ميركو . وكان قد انجز حتى ذلك الوقت عملا كبيرا وكان يعرف كيف يضفي عليه طابع الاقناع . واثر فيها ذلك . ربما لم تستطع ان تدرك الجوهر الحقيقي ، ولكن في هذه الحالة كنت انا نفسي غير مدرك لذلك . والشيء الذي كان مهما انه من خلال عمله ومن خلال ايمانه الظاهري ، اصبح اقرب الى قلبها من اي رجل آخر .

ونما ذلك فيها بسرعة وتعمقت جذوره .

في مطلع عام ١٩٤٢ بدأت تستفسر بالحاح عن عضوية الحزب . ولم أرها ابداً من قبل بمثل هذا الاضطراب . ابداً لم تنظر الى شيء من قبل بمثل هذه الجدية . وكنت ما ازال مترددا . وواصلت تعليمها واختبارها .

وفي شباط ١٩٤٢ تم قبولها عضوا في الحزب عن طريق اللجنة المركزية نفسها . وكنا عائدين ذات ليلة مثلجة ، واجنة وكانت ، وهي الثرثارة ، صامتة تماما على غير عادتها . واخيرا ، حين كنا نعبر الحقول قرب الدار ، توقفت فجأة وبهدوء ، بهدوء تام لدرجة اننا كنا نستطيع ان نسمع بلورات الثلج المتساقط ، قالت لي :

– اعرف ان هذا اليوم كان اهم يوم في حياتي . فانا ما عدت ملك نفسي الان . اعدك باني لن اخيب ظنكم ابدا . مهما حدث .

ولقد حدثت امور لا تعد . ولكنها لم تخيب ظننا .

حافظت على اكثر الصلات قربا بقيادة الحزب . وانيطت بها مهمات على درجة متناهية من الخطورة : ان تعيد تنظيم الاتصالات المقطوعة و تنقذ الاتصالات المهددة بالخطر . وحين كانت الخطورة تشتد بوجه الاتصالات على اعلى المستويات او كانت الحاجة ماسة لشقة ، تندفع ليدا الى هناك وتتسلل بمهارة مثل سمك الحنكليز . وكانت تقوم بذلك مثل السابق : كأنه أمر عادي وبذلك الجذل اللعوب ، ولكن باحساس متين

بالمسؤولية .

واعتقلت بعد شهر واحد من اعتقالنا . لقد ذكر ميركو اسمها في سياق اعترافاته وعندها لم يكن من الصعب عليهم التوصل الى انها قد ساعدت اختها ونسيبها على الهرب والالتحاق بالحركة السرية . لقد هزت رأسها وثلثت في دور تلك الفتاة الخلية البال التي لم تكن تعرف ان ماكانت تفعله محظور عليها وانها قد تتعرض الى عواقب وخيمة جراء ذلك .

كانت تعرف الكثير ولم تقل شيئا . ولكن الاهم من كل ذلك . انها لم تتوقف عن العمل ابدا . وبتغير الوسط . بدلت اساليب عملها وتبدلت مهماتها . الا ان واجبها كعضو في الحزب ما تبدل قط – ان لا تطوي ذراعيها . مهما كان القطاع الذي وجدت فيه . وراحت تنفذ كل المهمات . بتفان . بسرعة ودقة . وعندما كانت الحاجة تستدعي الخروج من وضع مربك . لانقاذ احد ما في الخارج . تأخذ ليدا على عاتقها «جريرة» شخص آخر . بذات الوجه البريء . واصبحت من سجينات الخدمة في بانكراك ويدين عشرات الناس المجهولين بالفضل لها لانهم لم يعتقلوا . واستمر الحال عاما تقريبا قبل ان يقطع هذا «الدور» الذي كانت تؤديه بسبب اكتشاف الجستابو لرسالة مخفية .

انها تسافر الان معنا الى الرايخ للمحاكمة . انها الشخص الوحيد من كل مجموعتنا الكبيرة الذي يملك املاً مبرراً في البقاء على قيد الحياة لتشهد يوم الحرية . انها ما تزال في ريعان الصبا . واذا اصبحنا نحن في عداد الاموات . فلا تدعوها تضيع . ان امامها الكثير لتتعلمه . علموها . ولا تدعوها تتحجر . ووجهوها . ولاتدعوها تصاب بالخيلاء او تنام على امجادها . لقد برهنت على معدنها في اشد اللحظات صعوبة . لقد عمدتها النيران ودللت على انها جبلت من معدن جيد .

ضابطي

انه لا يعود الى الشخوص . ولكنه من الاشكال المثيرة للاهتمام وعلى مقياس اكبر لحدما من الاخرين .

قبل عشر سنوات . في مقهى فلورا في فينوها ردي . حين تريد تسديد الحساب الى النادل وتبدأ قطع النقد المعدنية ترن . يظهر الى جانبك فجأة رجل نحيل . طويل القامة . يطير بخفة ودون ضوضاء بين المقاعد . مثل كشاف على ظهر غواصة . وقد ارتدى بدلة سوداء . ويقدم اليك قائمة الحساب . كانت له حركات حيوان مفترس . سريعة ومتلصصة وعينين ثاقبتين . سنوريتين تريان كل شيء . وانت لا تحتاج حتى للتعبير عما تريده . فهو نفسه الذي يطلب من الندل (الطاولة الثالثة . كوب قهوة كبير بالحليب دون قشطة .) . (النافذة اليسرى . كيك وجريدة ليدوفي نوفني .) كان رئيس سقاة جيد للزبائن وزميل جيد للمستخدمين الاخرين .

لم اتعرف عليه في ذلك الوقت بالطبع . فقد عرفته بعد ذلك بوقت طويل . في شقه ال جبلينيك . عندما كان يمسك بيده مبسدسا . بدلا من قلم . ويصوبه نحوي : « . . . هذا الرجل هو اكثر من يهمني .)

والحق يقال . ان اهتمامنا الواحد بالاخر كان متبادلا .

كان ذكيا بالفطرة . وكان سيشق طريقه بنجاح بالتأكيد في شرطة مكافحة الاجرام . فاللصوص الصغار والقتلة . وهم معزولون ومبعدون عن اترابهم . لن يترددوا في ان يفتحوا قلوبهم له . طالما ان شيئا لا يشغل اذهانهم قدر انقاذ جلودهم . لكن الشرطة السياسية نادرا ما تعثر على اناس من مثل هذه الطينة يقعون في قبضتها . وذكاء الشرطة هنا لايجابه بمجرد ذكاء الفرد المعتقل . بل يجابه قوة اعظم من ذلك بكثير معتقدات الفرد وفطنة الجماعة التي ينتمي اليها فالذكاء والضرب لا يكفيان هنا .

ولا يجد المرء اية معتقدات خصوصية راسخة عند (ضابطي) – كما عند الاخرين . واذا حدث ان كانت موجودة في اي منهم . فهي مرتبطة بالغباء لا الفطنة . لا بمعرفة الافكار او معرفة الناس . واذا كانوا . على العموم . مازالوا يملكون معيارا ما للنجاح . فسبب ذلك ان الصراع طويل النفس يجري في مساحة محدودة وفي ظل ظروف اشد

صعوبة بما لايقاس مما هي عليه في اية نضال سري اخر . كان البلاشفة الروس يقولون عادة ان شخصا يصمد عامين لظروف النشاط السري مناضل جيد . ولكن لو ان الامور ساءت بالنسبة لهم كثيرا في موسكو ، فان بأمكانهم مع ذلك الانتقال الى بتروغراد ومن بتروغراد الى اوديسا ليضيعوا هناك بين ملايين الناس ، حيث لا يعرفهم أحد . أما هنا فليس امامك الابراغ وبراغ فقط ، حيث يعرفك نصف الناس وحيث يمكن حشد رهط كبير من المخبرين . ومع كل ذلك وبرغمه فقد صمدنا سنوات وهناك حتى رفاق عاشوا حياة العمل السري خمس سنوات دون ان يعثر عليهم الجستابو . وكان هذا لاننا تعلمنا الشيء الكثير ، اجل وكان هذا ايضا لان العدو رغم جبروته وضراوته لايستطيع ان يفعل شيئا سوى التدمير .

هناك ثلاثة منهم في القسم ٢ – أ (١) ممن ذاع صيته جراء العنف المتناهي في مكافحة الشيوعية وممن يحملون الشريط الاسود والابيض والاحمر تقديرا لشجاعتهم في الحرب ضد العدو الداخلي : فريدريش ، زاندر و (ضابطي) جوزيف بوهم . انهم لا يتحدثون الا نادرا عن الاشتراكية القومية لهلتر – فقط بالقدر الذي يعرفونه انفسهم . انهم ليسوا محاربين في سبيل افكار سياسية . فهم لا يقاتلون الا في سبيل مصالحهم ، كل بطريقته . زاندر – مخلوق ضئيل دائم السخط ذو كبد حساس – ربما اكثرهم معرفة باساليب الشرطة ولكنه ايضا اكثر معرفة في الصفقات المالية . وقد نقل لبضعة اشهر من براغ الى برلين . ولكنه افلح في العودة الى مركزه بفضل التوسل . فالعمل في عاصمة الرايخ كان في نظره يعادل الحط من شأنه – الى جانب كونه خسارة مالية . ان موظفا كولونياليا في افريقيا السوداء او في براغ لهو رجل اخطر شأنا وامامه فرص افضل لزيادة رصيده في البنك . انه رجل مجد ويحب القيام بالتحقيق وهو يتناول غداءه . كما لو كان يريد التدليل على نشاطه وهو بحاجة الى ذلك ، لكي لا يرى احد انه ما زال اكثر نشاطا في عمله غير الرسمي . . . والويل لمن يقع في قبضته ، والويل مرتين لمن يملك رصيدا في البنك او سندات في نفس الوقت . فمثل هذا الشخص ينبغي ان يموت في اقرب فرصة ، لان ارصدة البنوك والاسهم هي غرام زاندر الجارف . وهو يعتبر ضابط بمنتهى الكفاءة – في هذا المجال . (وفي هذا يختلف عن مساعده ومترجمه التشيكي سمولا الذي يقرب من قاطع طريق جنتلمان لانه لا يطالب بحياتك ان قبض نقودا .)

فريدريش – رجل نحيل ، داكن البشرة طويل القامة ، له عينين شريرتين وابتسامة شريرة . جاء الى الجمهورية كأحد جواسيس الجستابو خلال عام ١٩٣٧ ، لكي يساعد على تصفية الرفاق الالمان في المنفى . ان الموتى هم غرامه الجارف . وفي نظرة ليس هناك من شخص برىء . فكل من تطأ قدماه عتبة مكتبه مذنب . وهو يجد متعة في التحدث الى النساء عن ازواجهن الذين ماتوا في معسكرات الاعتقال او تم اعدامهم . ويجب ان يخرج من درج مكتبه سبع قوارير رماد ويعرضها على اسراه :

– انا الذي قتلت هؤلاء السبعة بهاتين اليدين . وستكون انت الثامن .

(وقد اصبحوا ثمانية الآن . لانه قام بعدها بقتل جان زيزكا) كما يجد في تصفح الاضبارات القديمة ويلاحظ قائمة الموتى برضى : «انتهى ! . . انتهى !» وهو يتلذذ على الخصوص بتعذيب النساء .

ان شغفه بالترف لا يعدو عن كونه نافعا مساعدا لنشاطه البوليسي . شقة جيدة التأثيث أو حانوتا مكدس بالاقمشة الجيدة ، يعجلان بموتك لا أكثر .

مساعده التشيكي ، نيغر ، فأقصر منه بنصف قامة – بقدر تعلق الامر بطول القامة . وفيما عدا ذلك ، ليس هناك اي فرق بينهما .

بوهم – ضابطي – ليس عنده ذلك الهوى الجارف لا للمال ولا للموتى ، رغم ان كفاءته في هذا المجال لا تقل عن الاثنين الاخرين . انه مغامر يطمح ان يكون شيئا ما . لقد عمل لحساب الجستابو فترة طويلة . وكان نادلا في صالون نابليون اثناء اجتماعات بيران السرية – وما كان بيران لا ينقله الى هتلر ، يكمله بوهم نفسه . ولكن ما قيمة كل هذا مقارنة بفرصة اصطياد الناس وان يكون سيد حياتهم وموتهم ، يقرر مصائر عائلات بأكملها .

ولم يكن مهما بالنسبة له دوما ان تنتهي الامور على نحو محزن لكي يشعر بالرضا . ولكنه اذا لم يستطع ان يبرع باية طريقة أخرى ، فانه من القدرة بحيث يجعل الامور تسوء اكثر من ذلك بكثير . فما الجمال وما الحياة ، قياسا الى مجد الهيروسترات ؟

وقد يكون هو اكثر الثلاثة نشاطا في بناء شبكة واسعة من المخبرين . صياد يملك رهطا ضخما من كلاب الصيد . وكان يصطاد – وفي الغالب لمجرد الرغبة الصرفة في ذلك . وكان التحقيق بالنسبة له معظم الاحيان عملا مضجرا . فنشاطه الرئيسي هو

القيام بالاعتقالات ويرى الناس يقفون امامه وهم بانتظار قراراته . مرة اعتقل ما يقرب من مائتي سائق وجابي في الحافلات والباصات والباصات الترولي واوقف حركة المرور واثار الرعب . وعندها شعر بالسعادة . ثم اطلق سراح مائة وخمسين منهم ، مسرورا من اعتقاده ان مائتي وخمسين عائلة ستتحدث عنه كأنسان طيب .

كانت قضاياه من هذا النوع عادة ، نطاقها واسع ولكن من دون اهمية تذكر . ام انا الذي اصطادني صدفة ، فقد كنت قضية استثنائية .

«انت قضيتي الكبرى» كان يردد علي ذلك غالبا وكان فخورا انني ادرجت ضمن اخطر القضايا كلها . وقد تكون هذه الواقعة هي التي اطالت في عمري .

كنا نكذب على احدنا الاخر بكل وسيلة ممكنة ، ودون انقطاع ، ولكن بعناية . وكنت انا واع بذلك دوما ، اما هو فاحيانا . ومتى ما كانت الكذبة مفضوحة ، كنا نتجاهلها باتقان ضمني . واحسب ، انه لم يكن مهتما لتلك الدرجة بالتوصل الى الحقيقة قدر اهتمامه ان لا يبقى هناك ما يثير الشكوك حول (قضيته الكبرى) .

لم تكن العصي ولا الحديد في رأيه الوسيلة للتحقيق . كان يفضل التصنيف او التهديد تبعا للكيفية التي يزن بها (رجله) . ولم اعذب على يديه ابدا ، ربما عدا الليلة الاولى . ولكن حين يناسبه ذلك ، فانه يعهد بي الى الاخرين .

وكان دون ريب اكثر اثارة للاهتمام واكثر تعقيدا من جميع الاخرين ، كان يملك ثروة من الخيال وكان يعرف كيف يستخدمها . مرة ذهبنا الى اجتماع مدبر في برانيك . وجلسنا هناك في حديقة خمارة تطلعنا الى حشود الناس المتدفقة حولنا . قال لي : لقد اعتقلناك فانظر حولك : هل تبدل شيء ما ؟ ها هي الناس تمشي كما في السابق ، تضحك او ان لها مشاغلها ، كما كانت قبلا ، والدنيا تدور ، كما لو انك لم تكن موجودا ابدا . ولا بد ان بينهم بعضا من قرائك —اتظن ان تجاعيد وجوههم قد زادت حتى ولو واحدة بسببك ؟

وفي مرة اخرى وكان ذلك بعد يوم كامل من التحقيق ، وضعني بسيارة واخذني في جولة عبر مساء براغ الى هرادكاني التي تطل على شارع نيرودا :

— اعرف كم تحب براغ . انظر ! الا تود أحيانا ان تعود اليها ؟ كم هي جميلة ! وستكون جميلة حتى وانت غير موجود فيها . . .

كان بارعا في تمثيل دور الغاوي . كان المساء الصيفي يملأ المدينة بنذر الخريف ، وكان مزرقا ومضيأ مثل كرمة ناضجة ، ومسكرة كالخمر . كان بودي ان اواصل النظر حتى نهاية الدنيا . . . لكنني قاطعته :

. . . وستكون اكثر جمالا عندما لا تكونوا انتم موجودين هنا .

وضحك لحظة ، دون حقد ، انما بلمسه حزن وقال :

انك وقح .

وكان غالبا ما يتذكر تلك الامسية :

عندما لن تكون هنا . . . اذن مازلت لا تعتقد باننا سننتصر ؟

لقد تساءل ، لانه هو نفسه كان في شك من ذلك . وكان يصغي بانتباه عندما احدثه عن قوة ومنعه الاتحاد السوفياتي . وذاك ، بالمناسبة ، كان احد اخر التحقيقات التي جرت لي .

زوج مشدات — انترميتزو

قرب الباب المقابل لزنزانتي يتدلى زوج مشدات . زوج مشدات رجالية عادي . وهو شيء لم أحبه ابدا . اما الان فاني اتطلع اليه بفرح كلما كان باب زنزانتنا مفتوحا : وأرى منه شعاعا من الامل .

حين تعتقل ، ربما يضربونك حتى الموت ، ولكنهم قبل كل شيء يجردونك من ربطة العنق او المشدات حتى لا يكون بوسعك ان تشنق نفسك بها (مع ان بامكانك ان تفعل ذلك تماما بملاءة) . ادوات الموت الخطرة هذه تحفظ اذن في دائرة السجن حتى يتقرر لك في الجستابو مصير مجهول يكون عليك بموجبه ان ترسل الى مكان ما اخر : للعمل الى معسكر اعتقال او الى ساحة الموت . عندما ينادون عليك ويسلمونها لك بوقار رسمي ، لكنك لا تستطيع ان تدخلها معك الى الزنزانة . عليك ان تعلقها خارج الباب او على الحاجز المقابل ، وتبقى معلقة هناك حتى لحظة رحيلك ، كعلامة مرئية على ان احد نزلاء الزنزانة متجه الى مزار غير مرغوب .

ظهر زوج من المشدات مقابل زنزانتنا في ذات اليوم الذي علمت فيه بالمصير الذي اعد لجوستينا . ان رفيقا ما في الزنزانة المقابلة لزنزانتي سوف يرسل الى العمل في نفس

الوجبة التي ستنقل فيها . لكن وجبة النقل لم ترحل حتى الان . فقد اجلت على حين غرة ، وفي الظاهر لان المكان الذي كانت ستقصده قد قصف قصفا شديدا . (احتمال جميل اخر) . ما من احد يعرف متى سيتم ذلك . ربما هذا المساء . ربما غدا ، او في غضون اسبوع او اسبوعين . ان المشدات معلقة هناك طيلة الوقت . واعرف انا : طالما كنت أراها ، فمعنى ذلك ان جوستينا ما زالت في براغ . وهكذا اتطلع اليها بفرح ومحبة كأنما الى انسان ما يمد لها يد العون . لقد ربحت يوما اثنين ، ثلاثة . . . من يدري اي خير قد يأتي من ذلك ؟ ربما يستطيع هذا اليوم بالذات ان ينقذ حياتها .

كلنا نعيش في هذه الحالة . اليوم ، قبل شهر ، قبل عام – نستدير الى الغد وحده دوما ، الذي فيه يوجد الامل . ان مصيرك قد تقرر ، فبعد غد سترمى – آه ، ولكن من يدري ماذا يمكن ان يقع غدا ! عش للغد لا غير ، فغدا كل شيء يمكن ان يتغير ، وكل شيء غير مستقر لدرجة ، اجل ، من يدري ماذا يمكن ان يقع غدا ؟ والغدوات تمر . والالاف تموت ، والاف ليس لها غد ، لكن الاحياء يواصلون الحياة بأمل لا يتغير : غدا ، من يدري ماذا يمكن ان يقع ؟

ان اكثر الاشاعات حماقة تنجم عن ذلك – كل اسبوع يطلع موعد وهمي لنهاية الحرب ، وكل امرء يتشبث به باسنانه كلها ، كل اسبوع تهمس بانكراك بأخبار مفرحة جديدة مثيرة التي يجري تصديقها بسرور . وانت تكافح هذا ، تناضل ضد الامال الكاذبة لانها لا تشد من عزيمة المرء ، بل تضعفها . التفاؤل يجوز له ولا ينبغي ان يتغذى على الاكاذيب ، بل على الحقيقة ، على رؤية واضحة للنصر لا تتزعزع – لكن الواقعة الاساسية تظل فيك : ان هذا اليوم بالذات قد يكون حاسما وان اليوم الذي تربحه قد يساعدك على عبور الحد الفاصل ، بين الحياة التي لا تريد ان تتركها والموت الذي يتهددك .

ايام معدودات هن حياة الانسان . ومع ذلك فانت تود لو انها تمر بسرعة ، اسرع ، باسرع ما يمكن . فالزمن ، الهارب والمتملص ، الذي يستنزف الحياة منك ، هو صديقك . ما أغرب ذلك !

لقد اصبح الغد امسا . وبعد الغد اصبح اليوم . ومر هذا ايضا .

وما زالت المشدات قرب باب الزنزانة المقابلة معلقة .

الفصل السادس
الاحكام العرفية ١٩٤٢

٢٧ ايار ١٩٤٣

كان ذلك منذ عام واحد بالضبط .

من الاستجواب اقتادوني تحت الى «السينما» . كان هذا هو المزار اليومي لغرفة ٤٠٠ : عند الظهر تحت الى الغداء ، الذي يأتون به من بانكراك ، وبعد الظهر الى الطابق الرابع ثانية . لكننا لم نصعد ثانية هذا اليوم .

انت تجلس. وتتناول طعامك . المصطبات تغص بالمعتقلين المشغولين بالملاعق والمضغ . ويبدو ذلك انسانياً تقريباً . ولو ان كل هؤلاء الذين سيكونون في عداد الموتى غدا يتحولون اللحظة الى هياكل عظمية ، فان ضوضاء الملاعق وآنية الفخار ستختفي فجأة في صلصة العظام والاصطكاك الجاف للفكوك . ولكن حتى الان لايوجد عند أحد اي تصور لهذا الأمر . فكل واحد يطعم جسده بلذة . ليبقى على قيد الحياة اسابيع او اشهر او سنوات اخرى . ويكاد المرء ان يصف ذلك بكلمة واحدة هي السلوى . ثم تأتي فجأة لفحة ريح شديدة . والسكون ثانية . وحدها وجوه السجانين يمكن ان تنبئ ان شيئاً ما قد حدث . وبدقة اكبر ، بعد لحظة ، من واقع انهم نادوا علينا وصفونا من اجل رحلة العودة الى بانكراك . في منتصف النهار ! شيء غير عادي . نصف نهار دون تحقيق في وقت تكون فيه منهكاً من الاسئلة التي ليس عندك اي جواب لها – كأن ذلك مثل هدية من الرب . أو هكذا يبدو . ولكنه ليس كذلك .

في الممر نلتقي بالجنرال الياس . عيناه تغصان بالانفعال . ويلمحني ويهمس وسط حشد السجانين :

– الاحكام العرفية .

ولم يكن امام المعتقلين الا بضع ثوان لنقل هذا النبأ الاكثر اهمية . ولم يكن لديه وقت للرد على تساؤلي الصامت .

ودهش السجانون من بانكراك في عودتنا المبكرة . وكان السجان الذي اقتادني الى

زنزانتي يوحي بالثقة المتناهية . لااعرف بعد من يكون ، لكني اخبره بما سمعت . فهز رأسه . انه لايعرف شيئاً . ربما لم اسمع جيداً . اجل ، ربما . وهذا ابعث على الارتياح .

لكنه في المساء ذاته يعود ريثل في الزنزانة :

– انت على حق . محاولة اغتيال هيدريش . اصابته خطيرة . الاحكام العرفية في براغ . صباح اليوم التالي في الممر ليقتادونا الى التحقيق . بيننا الرفيق فيكتور سينيك ، آخر الاحياء من اعضاء اللجنة المركزية للحزب ، الذي اعتقل في شباط ١٩٤١ . ويلوح سجان طويل ببزة الأس – اس بورقة بيضاء امام وجهه ، يمكنك ان تقرأ فيها بحروف واضحة :

«أمر بالافراج»

قهقه بوحشيه .

– هاك ، ايها اليهودي ، لقد حصلت اخيراً على ماكنت تريد . الأمر باطلاق السراح !

فيك . . .

وباشارة الى رقبته ، بين ما الذي كان بانتظار رأس فيكتور . كان اوتو سينيك اول من اعدم عندما اعلنت الاحكام العرفية عام ١٩٤١ . واصبح شقيقه ، فيكتور ، اول ضحية للاحكام العرفية عام ١٩٤٢ . واقتادوه الى موتهاوزن . ليعدم رميا بالرصاص ، كما عبروا عن ذلك بلطف .

واصبح الطريق الان من بانكراك الى قصر بيتشيك العذاب اليومي لألاف المعتقلين . ورجال الأس – اس اثناء الواجب في الشاحنات «يثأرون لهيدريش» . وقبل ان تقطع عربة السجن كيلومتر واحد ، حتى يأخذ الدم يسيل من افواه ورؤوس المعتقلين جراء الضرب باعقاب المسدسات . وصار حضوري في الشاحنة منفعة للاخرين الان ذقني الملتحية كانت مبعث جاذبية لرجال الأس – اس ، تغريهم بصنع نكات مبتكرة . وكانت واحدة من متعهم المفضلة استخدام لحيتي كسير يتعلقون به وهم داخل الشاحنة المرتجة . وكان هذا بالنسبة لي مران جيد للتحقيق الذي كان يوازي الوضع برمته والذي ينتهي بالجملة المعتادة :

– اذا لم تكن اعقل غدا ، فسوف ترمى .

ولم يعد في هذا ما يثير الفزع الآن . فانت تسمعهم ، مساء بعد مساء ، وهم ينادون على الاسماء تحت في الممر – خمسون ، مائة ، مائتان ، يشحنون بعد لحظة في الشاحنات ، مربوطين معاً مثل خراف في طريقها الى المجزرة ، وينقلونهم الى كوبيليسكي لساحة الاعدام الجماعي . وذنبهم ؟ قبل كل شيئ واقع انهم بلا ذنب . لقد اعتقلوا دون ان يكونوا مرتبطين باية قضية خطيرة وليست هناك حاجة للتحقيق معهم ابداً وهكذا فانهم مناسبون للموت تماماً . قصيدة هجائية قرأها احد الرفاق على تسعة أخرين أدت الى اعتقالهم قبل شهرين من محاولة اغتيال هيدريش . هاهم الان ينقلون الى حتفهم الأخير بتهمة تحبيذ الأغتيال . قبل نصف عام اعتقلت امرأة بتهمة توزيع منشورات ممنوعة . ونفت هي التهمة . وهكذا اعتقلوا الأن شقيقاتها واشقاءها وازواجهن وزوجاتهم ايضا ونفذوا حكم الاعدام بهم كلهم . لان ابادة عائلات بأكملها كان شعار الاحكام العرفية . احد سعاة البريد اعتقل خطأ يقف تحت الجدار منتظراً اطلاق سراحه يسمع اسمه ينادى عليه فيتقدم الى امام . ويصفونه في طابور المحكومين بالاعدام ويقتادونه ويطلقون النار عليه ويكتشفون في اليوم التالي ان هناك رجلا آخر بنفس الاسم كان ينبغي ان ينفذ فيه حكم الاعدام . وهكذا يعدمون الرجل الآخر ايضا وتوضع الأمور في نصابها . التأكد من التفاصيل الشخصية المضبوطة للناس الذين سيعدموا – من يمكن له ان يضيع وقته على شيئ كهذا ! او ليس هذا امر لاطائل تحته طالما ان حياة امة برمتها مهدد بالموت ؟

عدت من التحقيق ، آخر المساء . تحت يقف عند الجدار فلاديسلاف فانكورا وصرة صغيرة بأغراضه عند قدميه أدرك ما يعني هذا . وهو يدرك ذلك أيضاً . نتصافح . مازلت قادراً ان اراه من اعلى في الممر . كيف يقف هناك ورأسه منحنى لحدما وهو يحدق بعيداً ، بعيداً عبر الحياة كلها . بعد نصف ساعة نادوا على اسمه . . .

بعد بضعة ايام وقف ميلوش كراسني عند نفس الجدار – جندي مقدام من جنود الثورة ، اعتقل في تشرين اول من العام الماضي ، لم يحطم عزيمته التعذيب والحبس الانفرادي . لقد استدار على النصف بعيداً عن الجدار واخذ يشرح بهدوء امراً ما الى السجان الذي يقف وراءه . يلمحني فيبتسم ويهز رأسه مودعاً ويواصل حديثه :

– لن ينفعكم هذا ابداً : سيسقط كثيرون منا ، لكنكم أنتم ستنهزمون . . . .

يوم آخر عند الظهر ، ونحن نقف في جوف قصر بيتشيك بانتظار الغداء ، جيء بالياس . كانت تحت ابطه جريدة يشير اليها بابتسامة : لقد قرأ فيها لتوه عن علاقته باولئك الذين نفذوا محاولة اغتيال هيدريش .

– هراء !

قال باقتضاب وشرع يأكل .

وواصل الكلام عن ذلك بمزاح خلال المساء عند عودته الى بانكراك مع الآخرين . بعد مضي ساعة ، اقتادوه من زنزانته واخذوه الى كوبيليسكي .

اكوام الموتى تعلو ، لاتعد بالعشرات او المئات بل بالآلاف . والدم الطري ابداً يثير شهية الضواري . انهم «يعملون . حتى ساعة متأخرة من الليل» ، يعملون حتى ايام الآحاد . وها هم الأن يرتدون بزات الأس – اس . انه يوم عيد لهم ، عيد الذبح . وهم يرسلون الى الموت العمال والمعلمين والفلاحين والكتاب والموظفين : انهم يقتلون الرجال والنساء والاطفال . انهم يبيدون عائلات بأسرها ، انهم يقتلون ويحرقون قرى برمتها . والموت بالرصاص ينتشر على الارض كالطاعون دون ان ينتقي ضحاياه .

والانسان وسط هذا الرعب ؟

يعيش

انه لأمر لايصدق . لكنه يعيش ، يأكل ، ينام ، يعشق ، يعمل ويفكر بألف شيء لاعلاقة له بالموت ابداً . ربما في مكان ما فوق عنقه يجلس هناك ثقل مروع ، لكنه يحمله ، دون ان يحني رأسه أو ينهار بسببه .

وفي فترة الاحكام العرفية هذه . اخذني الضابط الى برانيك . كان مساء احد جميل في حزيران عبق باشجار الزيزفون وآخر ازهار السنط . لم يكن الطريق الى محطة الباص عريضاً بما يكفي ليسع الدفق المسرع للناس العائدين من اعمالهم . وكانوا صاخبين وجذلين ، يتعبين بسعادة ، تعانقهم الشمس والماء واذرع احبتهم – الا الموت ، الموت وحده ، المنتشر باستمرار حولهم ، يبحث عن ضحاياه بينهم . لم يكن بالوسع ان تلمحه في قسماتهم وهم يتدفقون حشوداً جذلة وجيبة كالارانب . كالارانب ! ضع يدك بينهم

والتقط احداً منهم تتسلى به – سنيكمشون في زاوية . ولكن ما ان تمضي لحظة اخرى سيزدحمون بمشاغلهم ومسراتهم . بكل رغبتهم في الحياة .

لقد انتزعت فجأة من عالم السجن المسور الى هذا الطوفان الكاسح وتذوقت بمرارة من البدء مذاق سعادتهم العذبة .

من دون حق ، من دون حق .

فهذا الذي رأيته هنا كان حياة ، الحياة التي منها اتيت ، حتى هذه التي هنا ، بكليتها ، الحياة تحت وطأة الضغط الرهيب ، غير قابلة للدمار ، تقتل في واحد وتنبت في مائة ، الحياة التي تفوق الموت قوة . أهذه ينبغي ان تكون مرة ؟

ثم : ماذا عنا ، نحن الذين في الزنزانات ، نعيش في قلب هذا الرعب – انحن من طينة اخرى ؟

كنت اذهب الى التحقيق احياناً في سيارة الشرطة ، حيث يتصرف الحرس بلطف وكنت اتطلع من النوافذ الى الشوارع ، الى واجهات المخازن ، الى كشك للزهور ، الى حشود السابلة ، الى نساء . مرة قلت لنفسي لو اني عددت تسعة ازواج من السيقان الجميلة ، فلن اعدم اليوم . وهكذا بدأت اعد وافحص واقارن وادرس بعناية خطوطها ، وافقت ورفضت بانشغال جارف ، لا كما لو ان حياتي تتوقف عليها ، بل كما لو ان الحياة ذاتها لم تكن باي خطر ابداً .

وكالعادة ، عدت الى الزنزانة في وقت متأخر . ويكون الاب بيشيك يساءل بقلق نفسه : هل سيقدر له ان يعود ثانية ابداً ؟ ويعانقني واقص عليه باقتضاب اية اخبار هناك ، من اعدم يوم امس في كوبيليسكي – وبعدها نزدرد الخضار اليابسة المقرفة ، ننشد بعض الاغنيات الجذلة او نلعب بكابه لعبة غبية بالزار ونستغرق فيها كليا . ويقع ذلك في تلك الساعات من الاماسي حيث يمكن ان ينفتح فيها باب زنزانتنا في اية لحظة وتطرق رسالة الموت احدنا :

انزل ! اجلب كل حوائجك ! بسرعة !

ولم يستدعونا تلك المرة . وكتبت لنا النجاة من تلك الفترة المرعبة . وها نحن اليوم نستعيد ذكراها . مندهشين في مشاعرنا ذاتها . ما أغرب تكوين الانسان وما اقدره ان

يتحمل ما لا يمكن تحمله !

من المحال طبعاً ان لاتترك مثل هذه اللحظات اثارها العميقة في مكان ما منا ربما كانت مطوبة مثل بكرة فيلم مخفية في الدماغ وستبدأ ذات يوم تتطور الى جنون في الحياة الحقيقية ، اذا قدر لنا ان نعيش حتى ذلك اليوم ولكن ربما سيكون الأمر اننا سنراها مجرد مقبرة واسعة ، حديقة خضراء زرعوا فيها بذوراً غالية .

بذوراً غالية ستنبت ذات يوم .

الفصل السابع
شخوص وأشكال
بانكراك

للسجن حياتان . واحدة مغلقة داخل الزنزانات ، معزولة بقسوة عن العالم برمته ومع هذا فهي ترتبط به بأمتن الصلات الممكنة حيثما كان هناك سجين سياسي . والاخرى خارج الزنزانات ، في الممرات الطويلة ، في شبه الظلمة القاتمة ، عالم قائم بذاته ، موحد واكثر عزلة من العالم داخله ، عالم في اشكال كثيرة وشخوص قليلة . وهذا ماأريد ان أكتب عنه .

انه عالم يملك تاريخا طبيعيا وكذلك تاريخه الخاص . ولو لم يكن الامر كذلك لما استطعت ان اعرفة بهذا العمق . ولعرفت فقط الكواليس المواجهة لنا سطحها فقط ، المنسجم والراسخ في ظاهروالراسخ في ظاهره ، ثقل حديدي يضغط على نزلاء الزنزانة . وقد كان الامر على هذا النحو قبل عام مضى ، قبل نصف عام مضى . لكن السطح اليوم ملئ بالشروخ ووجوه تبصبص من خلالها–مسكينة ، رؤومة ، منهكة من الهم ، مضحكة ، متنوعة تماما ، لكنها تنتمي دوما الى الحياة الانسانية . ان ثقل نظام السجن يضغط على كل فرد من افراد هذا العالم الافل ويعتصر في وضح النهار كل ماهو انساني فيه . احيانا هناك القليل واحيانا اخرى هناك ماهو اكثر من ذلك بقليل–ان هذا المقدار يميزهم وتشكل منهم نماذج . وتجد بالطبع بعضا منهم حتى بشرا حقيقيين . لكن هؤلاء لم ينتظروا . وهم لايحتاجون الى لسعة الالم الممضة لكي يمدوا يد العون الى الاخرين ممن يتألمون .

ان السجن مؤسسة مقبضة . لكن العالم خارج الزنزانات يثير انقباضا اشد مما هو عليه في الزنزانات . في الزنزانات تعيش الصداقة–واية صداقة ! تلك الصداقة التي تولد في جبهة النضال ، في فترات الخطر الطويلة حيث يمكن ان تكون حياتك اليوم في يدي وغدا حياتي في يدك . بين حراس هذا النظام الالمان هناك صداقة ضئيلة للغاية . وهي لايمكن ان توجد . فهم محاطون بجو الوشاة . احدهم يتعقب الاخر ويكتب التقارير

عنه . كل واحد حذر لنفسه ضد أولئك الذين يسميهم رسميا (الرفاق) . وافضل من فيهم ممن لايستطيع ولا يرغب ان يبقى دون صاحب يبحث عنه في الزنزانات .

لفترة طويلة لم نعرفهم باسمائهم . ولم يكن هذا مهما . ففيما بيننا كنا نسميهم باسماء الكنية التي اطلقناها عليهم او من سبقونا والتي راحت تتناقل في الزنزانة . وكان للبعض كنى بقدر عدد الزنزانات : وهذا هو النمط الشائع . لاهو سمكة ولاهو سرطان بحري ، فهو هنا يزيد من حصة الاكل ، وفي الزنزانة التالية يقوم بضرب معتقل في الوجه–ان لحظات لاغير من الاحتكاك بالمعتقلين لكن هذه اللحظات تترك بصماتها التي لا تمحى في ذاكرة الزنزانة وتصنع صورة وحيدة الجانب وكنية وحيدة الجانب . ومع هذا فان الزنزانات كلها تتفق على الكنى . في حالة أولئك الذين تكون شخصياتهم أكثر تحديدا . كهذا او ذاك . طيب او شرير . انظروا الى هذه النماذج ! انظروا الى هذه الاشكال ! انهم لم يجمعوا معا اعتباطا . انهم جزء من جيش النازية السياسي . اناس منتقون . أعمدة للنظام وركائز لمجتمعه . . .

السامري

رجل متين البنية طويل القامة ذو صوت واهن رفيع . هذا هو رهويس (الاس اس الاحتياط) البواب السابق في احدى مدارس كولون . ومثل كل بوابي المدارس الالمان دخل دورات في الاسعاف الاولية وكان ينوب احيانا عن الموظف الصحي للسجن . وهو اول من تعرفت عليه هنا . لقد سحبني داخل الزنزانة وسجاني على فراش القش ، وداوى جروحي ووضع اولى الكمادات عليها . ربما ساعدني حقا على انقاذ حياتي . فاي شيء كان ذلك : أتعبير عن كائن انساني ؟ أم دورة في الاسعاف الاولية ؟ لاأدري . ولكن كان من المؤكد ان النازية هي التي تجسدت فيه عندما حطم اسنان يهود معتقلين وأرغمهم على ابتلاع ملئ ملعقة من الملح او الرمل على انه دواء شامل ضد كل انواع السقام .

الشمام

ثرثار طيب ، سمح الطبع ، عمل حوذيا في مصانع البيرة في بوديجوغيس اسمه الحقيقي كان فابيان . كان يدخل الزنزانة بابتسامة عريضة وهو يحمل الطعام ولم يسبب الاذى

لاحد ابدا . ولن تصدق مطلقا انه كان يقف الساعات الطوال خلف الباب يسترق السمع لما يدور في الزنزانة ليكون بوسعه ان يهرع الى السلطات حاملا لها كل نتفة من الاخبار التافهة المضحكة .

كوكلار

هو الاخر من عمال البيرة في بوديجوفيس . هناك عدد منهم هنا ، هؤلاء العمال الالمان من أرض السوديت . كتب ماركس (ليس المهم هو مايفكر به العامل او يقوم به ، بوصفه فردا ، لكن المهم هو ماينبغي على العمال كطبقة ان يقوموا به . من اجل تحقيق مهمتهم التاريخية) . وهؤلاء الذين هنا لا يعرفون اي شيء حقا عن مهمة طبقتهم . ولانهم سلخوا عنها ووضعوا ضدها فانهم معلقون في الهواء ايديولوجيا ومن المرجح ان تكون اعمالهم كذلك تماما .

انضم الى النازية ليؤمن لنفسه مورد رزق ايسر . فتبين له ان الامر اكثر تعقيدا مما تصور . ومنذ ذلك الحين فقد ابتسامته . لقد راهن على انتصار النازية . فتبين له انه كان يراهن على حصان ميت . ومنذ ذلك الحين فقد اعصابه . اثناء الليل . وهو يحوس ممرات السجن وحيدا بحذاء خفيف ، يترك فوق غبار مظلات النور أثار افكاره المقبضة .

كل شيء قد ضاع .

كتب هناك بشاعرية وهو يفكر بالانتحار .

في النهار يستحث المعتقلين والسجناء يصيح عليهم بصوت ثاقب مبهور لكي يتغلب على مخاوفه .

روسلر

شخص نحيل طويل القامة ، ذو صوت جهير خشن . انه احد الاشخاص القلائل القادرين على ان يضحكوا بصدق . عامل نسيج من ضواحي جابلونيك يلج الزنزانة ويظل يناقش–ساعات وساعات .

كيف تورطت في هذه الشغلة ؟ عشر سنوات وانا بدون عمل مناسب . عشرون كرونا في الاسبوع لعائلة باسرها–اتعرفون معنى حياة كهذه ؟ ثم جاءوا وقالوا لي : تعالى معنا

وسنعطيك عملا . ورحت معهم–واعطوني العمل . انا وجميع الاخرين . يمكننا ان نأكل . يمكننا ان نحصل على اسباب الراحة . يمكننا ان نعيش . الاشتراكية ؟ حسنا ، انها ليست اشتراكية نعم . وقد حسبت ان الامر سيكون مختلفا . لكنه افضل من السابق .

ليس هذا صحيحا ؟ الحرب ؟ انا مااردت الحرب . انا مأأردت الناس الاخرين ان يموتوا . أردت ان اعيش لاغير .

انا ساعدت على اشعالها ، شئت ذلك ام أبيت ؟ وماذا سأفعل الان ؟ هل انزلت الاذى باحد هنا ؟ لو اني ذهبت ، سيحل اخر محلي . أسوأ ربما . فهل أساعد احدا بهذه الطريقة ؟ حين تضع الحرب اوزارها ساعود الى المصنع . . من الذي سيريح الحرب في اعتقادكم ؟ ليس نحن ؟ أنتم ؟ وماذا سيكون مصيرنا ؟ النهاية ؟ وأسفاه . تصورتها ستنتهي على غير ذلك .

ويغادر الزنزانة بخطوات واسعة لامكترثة .

بعد نصف ساعة يعود يسأل عن حقيقة الوضع في الاتحاد السوفياتي .

«هذا»

ذات صباح كنا ننتظر تحت ، في الممر الرئيسي لبانكراك ، لكي يقتادونا الى التحقيق في قصر بيتشيك . كل يوم كنا نقف هكذا ، جباهنا قريبة من الجدار ، لكي لا نرى مايجري خلفنا . هذا الصباح ، على اية حال ، كان الصوت الذي ان خلفنا جديدا علي :

– اريد ان لا ارى شيئا ، اريد ان لا اسمع شيئا ! انتم لا تعرفوني ، لكنكم ستعرفوني عاجلاً !

ضحكت . في الترويض هنا ، لدينا قول شائع مأخوذ عن ذلك المغفل البائس الملازم دوب في رواية (الجندي الطيب شفيك) يطابق واقع الحال تماما . وحتى اليوم ، لم يكن هناك من واتته الجرأة على رواية هذه النكتة بهذا العلن . لكن لكزة ملحوظة من جار اكثر خبرة حذرتني من الضحك – ربما كنت على خطأ ، ولم يكن القصد من وراء ذلك المزاح . لم يكن نكتة .

كان الشيء الذي نطق بتلك الكلمات وراءنا مخلوقاً ضئيلاً لا يلفت النظر ببزة الاس – أس والذي كان واضحا انه لا يعرف ابدا من هو شفيك هذا . لقد تكلم مثل الملازم دوب لانه كان توأمه روحيا . ان اسمه فيثان ومثل فيثان كان له سجل خدمة طويل كرقيب في الجيش التشيكوسلوفاكي . وكان «هذا» على حق . اذ اننا تعرفنا عليه على نحو جيد بعدئذ ولم نتحدث عنه الا كنكرة : «هذا» . وبصراحة كانت مخيلتنا المبتكرة قد نضبت عندما كان علينا ان نجد كنية مناسبة لهذا المزيج الثري من التفاهة والبلادة والتبجح والفسق التي كانت الركائز الاساسية لنظام بانكراك .

انهم كعوب احذية ، كما يسمي ذلك ابناء الريف اولئك الوصوليين المتبجحين التافهين ، لتجريحهم في اكثر المواضع حساسية . اية ضآلة روحية تلك التي تجعل انسانا يتعذب من الضآلة الجسدية ؟ ان فيثان يتعذب منها ويثأر لذلك من كل شيء اعظم منه جسديا او روحيا ، ومعنى هذا كل شيء .

وهو لا يثأر بضرب الناس . فهو لا يملك الجرأة الكافية لذلك . بل بالوشاية بهم . فما اكثر المعتقلين الذين دفعوا صحتهم ثمنا لوشاية فيثان . وما اكثر من دفعوا حياتهم ثمنا لذلك – فلم يكن نوع المحضر الذي يرافقك في بانكراك الى احدى معسكرات الاعتقال ، امراً لا اهمية له ، هذا اذا قدر لك ان تخرج ابداً وانت على قيد الحياة .

انه مثير للضحك تماما . فهو يطير على طول الممر بوقار انفرادي ويحلم بأهميته الكبيرة . وحال ان يصطدم كائن بشري ، تواتيه الحاجة الى ان يتسلق شيء ما . وحين يحقق معك ، يجلس فوق الحاجز ويبقى في هذا الوضع المتعب ، وحتى لساعة اذا اقتضى الامر ، لانه اطول منك بشبر . او يسير على طول المصطبة ويلقي جملته المأثورة :

– اريد ان لا ارى شيئا . اريد ان لا اسمع شيئا ؟ انتم لا تعرفوني . . .

اثناء نصف ساعة الرياضة الصباحية ، يتمشى فوق العشب ، الذي له بالاقل مزية رفعه عشر سنتمترات اعلى مما يحيطه . يلج الزنزانة بجلال ، مثل موكب ملكي ، وسرعان مايصعد على كرسي ليتمكن من اداء مهمته التفتيشية من موقع مرتفع .

انه مثير للضحك تماما ولكنه – مثل كل مغفل في جهاز حكومي ، تتخذ فيه القرارات المتعلقة بحياة الناس – في الوقت ذاته بمنتهى الخطورة . وفي محدوديته يكمن امل ما : ان يصنع حجلا من بعوضة . وهو لا يعرف شيئا ابعد من مهمة كلب الحراسة وهكذا فان

اقل انحراف عن النظام المفروض ، امر خطير بالنسبة له . يضاهي في خطورته اهمية مهنته . ان يفبرك الاعتداءات والجرائم ضد نظام السجن ، لكي يتمكن من الاخلاد الى النوم مزهوا باعتقاده انه شخص مهم . ومن هو الذي يفحص هنا كم من الصدق تنطوي عليه المعلومات التي يقدمها ؟

سميتونز

رجل جبار البنية ذو وجه فارغ وعينان بلهاوان ، كأنه احدى كاريكاتيرات غروس عن رجال الصاعقة النازيين وقد بعثت الى الحياة . عمل راعيا للبقر عند الحدود الليتوانية ، لكن اغرب شيء ان الحيوانات الجميلة التي كان يرعاها لم تترك عليه اي اثر من قبلها . تعتبره السلطات تجسيدا للفضائل الألمانية : فهو فطن ، صارم ، نزيه (احد القلائل الذين لا يطلبون الطعام من سجناء الخدمة) ولكن . . .

احد الباحثين الالمان ، ولا اتذكر اسمه ، حسب مرة ذكاء المخلوقات تبعا لعدد (الكلمات) التي يستطيع تكوينها . وتوصل . كما احسب ، الى ان اقل المخلوقات ذكاء هو القط البيتي الذي لا يستطيع ان يكون اكثر من ١٢٨ كلمة . اي عبقري هو هذا القط مقارنة بسميتونز . الذي ماسمعت بانكراك منه الا اربع كلمات لا غير :

– انتبه انت ياهذا !

مرتان – ثلاث مرات اسبوعيا ترك واجبه ، مرتان ، ثلاث مرات اسبوعيا مر بأسوء تعذيب ممكن – وانتهى الامر دوما على نحو سيء . مرة رأيته يؤنب من قبل مدير السجن لان النوافذ كانت مغلقة . وللحظة تدحرج جبل اللحم باضطراب على ساقيه القصيرتين ، والرأس المحني بغباء ينخف— اكثر فأكثر وقد تهدلت زاويتا فمه جراء الجهد العنيد لاستعادة ماسمعته الاذنان لتوهما . . . وفجأة هدرت الكتلة برمتها مثل صافرة انذار ، مثيرة الهياج على طول . . . الممر كله ولم يفهم.احد جلية الامر ، فالنوافذ ظلت موصدة – عدا الدماء التي كانت تنزف من انفي اثنين من المعتقلين ، ممن كانا الاقرب الى سميتونز . لقد وجد الحل اخيرا .

وكان الامر ينتهي على هذا النحو كل مرة . ان يضرب الناس ، ان يضرب من يصادفه ، ان يضربهم واذا اقتضى الامر ، يضربهم حتى الموت – كان يفهم هذا . وهذا وحده مرة دخل زنزانة يشغلها عدد من المعتقلين وضرب احدهم . وسقط المعتقل ، الذي كان

رجلا مريضا ، واخذ يتلوى على الارض . وكان على الآخرين كلهم ان يركعوا وينهضوا على ايقاع التشنجات الى أن سقط الرجل المريض من الاعياء تماما – وسميتونز يداه على ردفيه وابتسامة بلهاء على وجهه ، يتطلع بسرور الى الحل الناجح الذي توصل اليه لهذا الوضع المعقد .

بدائي لا يتذكر الا امرا واحدا من كل ماتعلمه : ان بوسع الانسان ان يضرب . ومع ذلك ، فحتى في هذا المخلوق تحطم شيء ما . وكان ذلك قبل شهر مضى . كان رجلان – هو وك – يجلسان في مكتب استقبال السجن وكان ك يتحدث عن الوضع . وقد دام الحديث وقتا طويلا – وقتا طويلا للغاية ، قبل ان تتوهج في ذهن سيمتونز اول ومضة فهم لشيء ما .

نهض وفتح باب المكتب والقى بصره بحذر على طول الممر : كان كل شيء هادئا ، والوقت ليل والسجن يغط في النوم . اغلق الباب ، واوصده بعناية خلفه وانهار على الكرسي ببطء :

– اذن فانت تعتقد . . . ؟

واسند رأسه براحتي يديه . وضغط ثقل هائل على تلك الروح الصغيرة في الجسد الجبار . وظل على هذه الحال وقتا طويلا . ثم رفع رأسه وقال بيأس :

– انت على حق . لن نستطيع الانتصار الان . . .

ومنذ شهر وبانكراك لم تسمع صيحات الحرب التي كان سميتونز يطلقها . ولم يذق المعتقلون الجدد طعم يده .

مدير السجن

رجل أميل الى القصر ، انيق على الدوام ، بملابس مدنية او ببزته العسكرية ، باذخ ، متباه ، يهوى الكلاب والصيد والنساء–هذا جانب واحد من الرجل ، وهو لا يخصنا .

الجانب الاخر–وهو الجانب الذي تعرفه بانكراك عنه–نازي نموذجي ، محدث نعمة ، جلف وفظ . على استعداد لان يضحي بالجميع للحفاظ على نفسه . اسمه سوبا–ان كان للإسماء اية اهمية تذكر–واصله من بولنده . ويقال ان صنعته حداد ، لكن

هذه الصنعة الشريفة مرت عليه ولم تترك فيه أي اثر . ودخل في خدمة هتلر منذ وقت طويل ووصل الى مركزه الحالي بفضل طموحه الذي لا يكل . ودافع عنه بكل السبل الممكنة ، متوحش ولا يعرف الرحمة ازاء الجميع ، سجناء كانوا ام موظفين ، اطفال أم مسنين . ان المستخدمين النازيين في بانكراك لا تربطهم اية صداقة . ولكن ما من شخص هناك اشد عزلة من سوبا . وقد يكون الشخص الوحيد الذي يقدره ويتحدث اليه غالباً هو الموظف الصحي للسجن فيسنر . رغم ما يبدو من ان حتى هذه الصداقة غير متبادلة .

وهو لا يعرف الا نفسه . ولنفسه فقط حصل على هذا المركز الخطير ومن اجل نفسه سيبقى وفيا لهذا النظام حتى اللحظة الأخيرة . وقد يكون هو الشخص الوحيد الذي لا يفكر باية وسيلة اخرى لانقاذ نفسه . فهو يعرف ان ليس هناك من سبيل آخر . ان انهيار النازية هو انهياره ، خاتمة حياته الموسرة ، وشقته الفارهة ، نهاية اناقته (التي لا يخجل في سبيلها عن ارتداء ملابس التشيكيين الذين يعدمون) .

هذه هي النهاية . أجل .

الموظف الصحي للسجن

عريف الشرطة فيسنر–من الأشكال الغريبة الاطوار في وسط بانكراك . احياناً يبدو لك وكأنه لا ينتمي الى هذا الوسط ابداً واحياناً اخرى لا يمكنك حتى ان تتصور بانكراك من دونه . واذا لم يكن في غرفة التمريض ، فهو يجوس على طول الممرات بخطوات صغيرة ، متمايلة ، يحدث نفسه ويراقب الأمور طيلة الوقت ، طيلة الوقت . ومثل اجنبي لم يأت هنا الا لوقت قصير ويريد ان يحمل معه اكثر ما يمكن من الانطباعات . ولكنه يعرف حق المعرفة كيف يضع مفتاحه في الباب ويفتح الزنزانة بسرعة وهدوء ، مثل ابرع السجانين .

وهو يملك روح للنكتة جافة تسمح له ان ينطق بأشياء مليئة بالمعاني الخفية دون ان

تلزمه باي شئ في ذات الوقت ويصعب مؤاخذته على كلامه . وهو يحاول التقرب من الناس لكنه لا يسمح لاي أحد بالاقتراب منه . لا يشي بأحد . رغم انه يرى الشيء الكثير . يلج زنزانة تكتظ بالدخان . فيتنشق بصوت عال :

–احمْ–ويتمطق بشفته– التدخين في الزنزانات ممنوع منعا باتا – ويتمطق ثانية . لكنه لا يرفع اية شكوى ضدنا . وجهه مدلهم وغير سعيد باستمرار . كأنه ينوء بثقل هم كبير . واضح انه غير راغب بان يكون له اي شيء مشترك مع النظام الذي يخدمه والذي يطبب ضحاياه كل يوم . انه لا يؤمن به . ولا يؤمن ان مثل هذا النظام سيبقى وهو لم يؤمن به ابداً حتى في الماضي . ولهذا السبب لم ينقل عائلته من براتسلافا الى براغ . رغم ان قلة من موظفي الرايخ يدع فرصة الاثراء في بلد محتل تفلت من يده . وهو عاجز بنفس القدر على ان تكون له اية صلة مشتركة بأولئك الذين يناضلون ضد هذا النظام : فهو لم يصبح بعد في صف واحد مع الناس .

كان مندفعاً ومدفقاً في عنايته لي . وهو على هذا النحو في غالب الأحيان وبوسعه ان يمنع بعناد اقتياد المعتقلين الى التحقيق ممن تعرضوا الى التعذيب المضني . قد يكون ذلك لأسكات ضميره . وفي مرات اخرى . يرفض مع ذلك ان يقدم العون وقت ان تكون هناك حاجة ماسة اليه . وقد يكون ذلك حين يتملكه الخوف .

انه نموذج للانسان الضئيل . وحيداً . بين الخوف الذي يتحكم فيه والخوف مما هو أت . وهو يبحث عن مخرج . ولا يجد واحداً . انه ليس جرذاً . بل فأرة ضئيلة وقعت في مصيدة .

من دون أمل .

«فلينك»

هذا الرجل لم يعد مجرد شكل من الاشكال . ولكنة لم يصبح بعد شخصاً حقيقياً . حالة انتقالية ما بين الاثنين . انه يفتقر الى الوعي الواضح الذي يمكن ان يصنع منه شخصاً .

هناك في الواقع اثنان من هذا الصنف . انسانين بسيطين ، حساسين ، سلبيين في البدء ، تثير دهشتهما فقط الاهوال التي وجدا نفسيهما فيها ، ليتوقا بعدها الى الخلاص من كل هذا . وبالاعتماد على الاخرين وبالتالي البحث عن المعونة منهم ، وجدا الخلاص ، في المكان الصحيح ، وجداه بالغريزة لا بالمعرفة . وهما يبديان لك المساعدة لانهما ينتظران منك الشيء ذاته . ومن الصواب مساعدتهما . سواء الآن- ام في المستقبل هذان الاثنان- الوحيدان من بين كل الموظفين الالمان في بانكراك- كانا في الجبهة ايضاً . هانوار ، مساعد خياط من زنوجمو ، عاد بعد فترة وجيزة في الجبهة الشرقية بقضمة الصقيع- في نفسه . يتفلسف قليلاً على طريقة شفيك «الحرب ليست للناس . ولا مكان لي هناك .»

هوفر ، اسكافي مرح من مصانع باتا ، شارك في الحملة على فرنسا وهرب من الجيش ، رغم انهم وعدوه بترقية . «الى جهنم» يقول وهو يحرك يده باشارة احتقار ، مثلما يفعل ذلك وربما منذ ذلك الوقت ازاء كل همومه الصغيرة ، التي يملك منها الكثير . يشبه احدهما الآخر ، سواء في المصير او الشخصية . لكن هوفر أقل جبناً واوضح تعبيراً وأكثر نضجاً . «فلينك »- تكاد الزنزانات كلها تتفق على هذه الكنية التي اطلقت عليه .

واليوم الذي يكون فيه في الواجب هو يوم سلام في الزنزانات . فانت تفعل ما تشاء . واذا صرخ ، يغمز بعينيه ليريك انه لا يقصدك ، فالامر يتعلق بالسلطات هناك في الطابق الأرضي التي ينبغي ان تقنع انه يبدي الفطنة المطلوبة . لكنه جهد لا طائل من ورائه ، على اية حال فهو لا يقنع احداً ولا يمر اسبوع واحد الا وفرض عليه واجب اضافي ، بمثابة عقوبة له .

«الى جهنم!» يلوح بيده احتقاراً ويواصل عمله بنفس الطريقة القديمة . انه ما يزال أقرب الى مساعد اسكافي يافع خلي البال منه الى سجان . ويمكنك ان تراه مع المعتقلين في الزنزانة ، يلعب بقطع النقد على الجدار بفرح طاغ . وفي بعض الأحيان يخرج المعتقلين من الزنزانة الى الممر ويقوم بحملة «تفتيش» . ويستغرق التفتيش وقتاً طويلاً . واذا

كنت شديد الفضول ، فانك تسترق النظر الى داخل الزنزانة وتراه عند الطاولة رأسه فوق مرفقيه ، نائماً ، نائماً بنشوة فرحة وطمأنينة . فهنا يجد افضل حماية من رؤوسائه ، لأن السجناء في الممر يقومون بالحراسة ويبلغون عن اي خطر وشيك . انه يريد على الأقل ان ينام اثناء الواجب ، طالما كان النوم اثناء ساعات الراحة يطرده تفكيره بالفتيات اللائي يحبهن ، فوق اي شيء آخر . هزيمة أم انتصار النازية؟- الى جهنم! كيف يمكن لمثل هذا السيرك ان يدوم؟ انه لا يعتبر نفسه جزءاً منه . وهذا وحده يجعل منه شخصاً باعثاً على الاهتمام . ولكن ما هو اكثر من ذلك : انه لا يريد ان ينتمي اليه وهو لا ينتمي اليه حقاً . هل لديك رسالة سرية تبعث بها الى قسم آخر من السجن؟ «فلينك » يوصلها . هل انت بحاجة الى ان تبعث برسالة الى الخارج؟ «فلينك » سيسلمها . هل انت بحاجة الى مناقشة امر ما مع شخص ما ، لتقنعه شخصياً وتنقذ بهذا اناساً آخرين ؟«فلينك » يأخذك الى زنزانته ويقف في الحراسة- مع شيء من الفرح الماكر ينتابه لانه قام بعمل ناجح . غالباً ما يكون عليك ان تحذره ان يكون منتبهاً . فحين يكون في قلب الخطر فانه قليل الانتباه له . وهو لا يدرك الأهمية الكاملة للخير الذي يفعله ، وهذا ما يسهل عليه القيام بالمزيد ، ولكنه يقف عقبة بوجه تطوره .

انه ليس بشراً بعد ، ولكنه في طريقه الى ذلك .

«كولن»

كان ذلك ذات مساء اثناء الاحكام العرفية . لقد قام السجان بيزة الاس-اس والذي اقتادني الى زنزانتي ، بمجرد تفتيش ظاهري في جيوبي .

سألني بهدوء- ما هي قصتك؟

-لا اعرف . اخبروني اني سأعدم غداً .

-هل يخيفك ذلك ؟

-لقد حسبت حساب ذلك .

وللحظة مرر اصابعه بشكل ميكانيكي على ياقة معطفي .

-قد يفعلون ذلك . ليس غداً ربما ، ربما بعد ذلك . ربما لن يفعلوا ذلك ابداً . ولكن في اوقات كهذه . . . من المستحسن ان يكون المرء مستعداً . . .

ومرة اخرى ران الصمت عليه .

-ولكن اذا اردت . . . الا تريد ان تبعث برسالة الى احد ما؟ او : الا تريد ان تكتب؟ لا للحاضر . انت تفهم . انما للمستقبل . كيف قدر لك ان تأتي هنا . هل اعترف عليك احد . كيف كانت مواقف الآخرين . . . وهكذا فان ما تعرفه لن يموت معك . . . هل اريد انا ان اكتب؟ كأنما كان قد حزر أحر رغبة تساورني .

بعد لحظة . عاد بقلم وورق . واخفيتهما بعناية . لكي لا تكتشف خلال التفتيش لكنني لم المسها ابداً .

كان الامر رائعاً لدرجة اني شككت به . رائع اكثر مما ينبغي . هنا . في بيت الظلام هذا وبعد أسابيع قليلة من اعتقالي . تعثر على كائن انساني ببزة اولئك الذين لا يضمرون لك الا الصراخ والضرب . تعثر على صديق . ليمد يده اليك لكي لا تموت دون ان تترك اثراً . يساعدك على ان تبعث بكلمة لمن سيأتون بعدك . يمكنك ان تتحدث حتى ولو للحظة ، الى اولئك الذين ستكتب النجاة لهم ويواصلون الحياة . الان بالذات . لا في اي وقت آخر ! في الممرات ، وقد اسكرتهم الدماء . كانوا ينادون على اسماء المحكومين بالاعدام . بصرخات فظة والرعب يأخذ بخناق اولئك الذين كانوا عاجزين عن الصراخ . الآن بالذات . لا في اي وقت آخر . في لحظة كهذه- لا . انه شيء لا يصدق ، ولا يمكن ان يكون حقيقياً . ولا بد ان يكون فخاً لا غير . اية قوة على الانسان ان يملكها لكي يمد لك يده . من تلقاء نفسه وفي ظروف مثل هذه! واية جرأة هذه!

ومر ما يقرب من شهر . وانتهت الاحكام العرفية . ذوت الصيحات . وتحولت اللحظات المروعة الى ذكرى . ومرة اخرى كان الوقت مساء وكنت قد عدت لتوي من التحقيق . ومرة اخرى كان السجان نفسه يقف خارج الزنزانة .

-يبدو انك نجوت . هل-

وتطلع الي متسائلاً :

-هل سار كل شيء على ما يرام؟

فهمت السؤال جيداً . واثر علي ذلك بعمق . ولكنه اقنعني اكثر من اي شيء آخر بأمانته . فمثل هذا السؤال لا يمكن ان يسأله الا رجل يمتلك الحق الضمني بتوجيهه . واوليته ثقتي منذ تلك اللحظة . لقد كان رجلنا .

لاول وهلة . يبدو شخصاً غامضاً . كان يقطع الممرات وحيداً . هادئاً . مغلقاً داخل نفسه ، يقظاً ، مترصداً . انت لم تسمعه يصرخ ابداً . ولم تره يضرب احداً ابداً . الرفاق في الزنزانة المجاورة طلبوا منه مرة «اضربنا احياناً حين يكون سميتونز موجوداً ، لكي يراك وانت تعمل ولو مرة واحدة على الأقل .

وهز رأسه :

-لا حاجة لذلك .

انك لا تسمعه يتحدث الا بالتشيكية . وكل شيء فيه يؤكد لك اختلافه عن الآخرين .

ولكنك ستجد من الصعب عليك معرفة سبب ذلك . وكانواهم يشعرون بذلك انفسهم . لكنهم كانوا عاجزين عن فهم هذا الاختلاف .

وهو موجود حيثما كانت هناك حاجة له . ينشر الطمأنينة حيثما سادت الفوضى ، يبث العزيمة حيثما تخاذلت النفوس . يوجد حيثما كانت . الخيوط المقطوعة تهدد اناسا جدد خارج السجن . وهو لايضيع نفسه في الأمور الصغيرة ، بل يعمل بعقلية منظمة وعلى نطاق واسع .

وليس هذا ابن اللحظة . بل منذ البدايات الأولى . وبالهدف ذاته انخرط في خدمة النازية . انه ادولف كولينسكي - سجان تشيكي من مورافيا من عائلة تشيكية عريقة ، سجل نفسه كألماني ليكون بوسعه ان يصل الى هراديك كرالوفي ويقوم بحراسة السجناء التشيكيين لينتقل بعدئذ الى بانكراك ! ولابد ان مثل هذا الامر قد اثار مرارة كبيرة بين اولئك الذين يعرفونه . ولكن بعد اربع سنوات ، يرسل عليه مدير السجن الالماني ويلوح قبضته بوجهه ويهدده - ولكن بعد فوات الاوان :

- سانتزع روحك التشيكية من بدنك !

لكنه مخطئ . فليس الأمر مجرد روحه التشيكية . اذ ان عليه ان ينتزع منه الانسان الذي فيه ، الانسان الذي راح قدماً بوعي وارادة الى مكانه الصحيح لكي يناضل ويدعم النضال . والذي لم تزده المخاطر المستمرة هنا الاصلابة .

خاصتنا

لوانهم صباح ١١ شباط ١٩٤٣ قدموا لنا للافطار الكاكاو بدلاً من ذلك المزيج المغلي الأسود المعتاد المصنوع لا أدري من اي شيئ . لما كنا لاحظنا هذه الاعجوبة . لاننا هذا الصباح لمحنا لحظة بزة شرطي تشيكي تمر من امام باب زنزانتنا .

مجرد لمحة خاطفة . خطوة واحدة لسروال اسود في جزمة طويلة ، يد بكم ازرق غامق ترتفع الى القفل وتسحب الباب – ثم تلاشت الرؤية . كانت لمحة قصيرة للغاية حتى اننا بعد ربع ساعة كنا على استعداد لأن ننكر ذلك .

شرطي تشيكي في بانكراك ! اية استنتاجات خطيرة يمكن استخلاصها من ذلك ! وفي غضون ساعتين كنا قد توصلنا اليها . وأنفتح باب الزنزانة ثانية ، واطلت قبعة شرطي تشيكي الى الداخل وهتف فم كشف عن ابتسامة عريضة من دهشتنا : – ساعة من النزهة !

لا يمكن ان نكون مخطئين بعد الأن . فقد بدأت بقع داكنة – بدت لنا تشع ضوءاً ، تظهر وسط البزات الرمادية الحديدية لسجاني الأس – اس في الممرات : الشرطة التشيكيين ما الذي يعنيه ذلك بالنسبة لنا ؟ وفي اية شاكلة سيكونون ؟ كيفما سيكونون فأن مجرد وجودهم هنا لذو دلالة واضحة . كيف يسرع هذا النظام الى نهايته ، اذا كان في اخطر مواقعه ، في الدعامه الوحيدة التي يملكها ، في جهازه القمعي ، اصبح عليه ان يستخدم اناساً من الشعب الذي يريد ان يضطهده ! وأي نقص مروع في البشر يعانيه اذا كان يضعف حتى هذا ملاذه الأخير . من اجل الحصول على حفنة افراد ! كم من الوقت يعتقد انه سيدوم بعد هذا ؟

انهم مطمئنون ، بطبيعة الحال ، الى ان هؤلاء قد يتم اختيارهم بصورة خاصة . وربما كانوا اسوء حتى من السجانين الألمان ، الذين تآكلوا بفعل العادة وانعدام اليقين بالنصر . لكن مجرد واقع كونهم هنا علامة لا تدحض على النهاية .

هكذا رحنا نفكر .

الا انه كان هناك اكثر مما سمحنا لانفسنا ان نفكر فيه . فالنظام لم يعد قادرا حتى على الاختيار . لم يعد لديه اي شيئ يوفر له الاختيار .

في ١١ شباط رأينا البزات التشيكية لاول مرة .

وفي اليوم التالي بدأنا نتعرف عليهم كأناس .

لقد قدم واطل في الزنزانة ، نقل قدميه بشيئ من الحيرة على عتبة الزنزانة ومن ثم مثل اي غلام يافع تملؤه نزوة النشاط في اللحظة التي يبدأ فيها القفز على اربعة قال بجراة مفاجئة :

– حسنا . يا سادة . كيف هي الدنيا؟

واجبناه بابتسامة . ورد الابتسامة بأخرى ومن ثم بدت الحيرة عليه ثانية :

– لا تظنوا السوء بنا . صدقوني . كنا نفضل ان نبقى نتسكع في الشوارع على ان نقف حراساً عليكم هنا . لكنهم ارغمونا على المجيء . ولكن رب . . . رب ضارة نافعة . . . وسر عنه ما اخبرناه بما نعتقده بشأن ذلك وما هو رأينا فيهم . وهكذا اصبحنا اصدقاء منذ اول لحظة . كان اسمه فيتك ، امرء بسيط . طيب القلب وكان هو اول من مر من امام باب زنزانتنا ذلك الصباح .

الثاني وهو توما . كان النموذج الحقيقي للسجان التشيكي القديم – متجهم ، صخاب ، ولكنه طيب الأعماق ، من ذلك الصنف الذي اعتدنا ان ندعوه في سجون ما قبل العهد الجمهوري (العصا الهرمة) . لم يشعر بأي استغراب من عمله الجديد . على العكس . بدا على الفور وكأنه في بيته . وكان يحافظ على النظام بطريقته الخاصة ، بنكاته الخشنة دوماً ، وبذات الطريقة التي كان يخرق بها هذا النظام : فهنا يقوم بتهريب الخبز الى زنزانة ، وهنا سيجارة ، وهناك يستغرق في حوار ممتع في اي موضوع (الا الوضع السياسي) . وهو يقوم بذلك بفعل العادة ، فقد كان هذا هو تصوره لواجب السجان وما كان ليخفي ذلك . وكان اول توبيخ يتلقاه حافزاً له ليكون اكثر حذراً ، الا انه لم يبدل فيه شيئاً . فقد بقي تلك العصى الهرمة الطيبة . لا يمكن للمرء ان يتجرأ ويطلب منه القيام بعمل كبير . الا ان بوسعك ان تتنفس بحرية حين يكون هناك الثالث ، جاء يحوم حول الزنزانات مقطباً ، صموتاً ، دون اكتراث . ولم تعط المحاولات الحذرة للأحتكاك به اية نتيجة .

وابدى الأب ملاحظة بعد اسبوع من المراقبة – لم يحالفنا الحظ معه حتى الآن . انه اكثر

الثلاثة خذلانا لنا .

– أو اكثرهم فطنة .

آمنت على قوله . بشيء من المعارضة على الارجح . لأن رأيي في الأمور الثانوية هي توابل الحياة في زنزانة .

بعد اسبوعين . بدا لي ان هذا الكائن الصموت قد غمز بعينيه بحيوية اكبر لحدما . ورددت على هذه الحركة الملتبسة التي لها في السجن الف معنى . ولكن دون جواب . لابد اني كنت واهماً .

ولكن كل شيء اتضح في غضون شهر . وحدث الأمر فجأة . مثلما تنبثق فراشة من الشرنقة . فقد انفجرت الشرنقة – وظهر منها كائن حي . ولكنه لم يكن فراشة . بل كائنا انسانياً .

– انت تقيم نصباً .

كان الأب يردد علي ذلك بخصوص سكيتشات الشخصيات التي كنت اكتبها . اجل ، لقد اردت ان لا تنسى ذكرى هؤلاء الرفاق الذين ناضلوا بتفان واقدام ، خارج السجن وفيه ودفعوا حياتهم ثمناً . ولكني اردت كذلك ان لا تنسى ذكرى الأحياء الذين ساعدونا بوفاء لا يقل عن ذلك وبجرأة لا تقل عن ذلك في اقسى الظروف . اريد اشخاصاً من مثل كولينسكي وهذا الشرطي التشيكي – ان يظهروا من ظلمة ممرات بانكراك الى نور الحياة . لا من اجل مجدهم الشخصي . بل كقدوة للآخرين . فالواجبات الانسانية لا تنتهي عند حدود هذا النضال . فكون المرء انساناً ، سيتطلب منه على الدوام روحاً مفعمة بالبطولة حتى ذلك الوقت الذي يصبح فيه كل الناس بشراً حقيقيين .

وهذه في الواقع مجرد قصة مقتضبة عن عريف الشرطة ياروسلاف هورا . ولكنك ستجد فيها تاريخ انسان حقيقي .

رادنيسكو . بقعة نائية في هذا العالم . ريف جميل . كئيب وفقير . والده خزاف . حياة قاسية . كدح طاحن حين يكون هناك عمل وفاقة وقت البطالة . التي تستوطن المكان . وحياة كهذه تضطر المرء اما الى ان يركع او يرفع رأسه ويتطلع الى عالم افضل . الايمان به

والنضال في سبيله . واختار والده السبيل الثاني واصبح شيوعياً .

كان الفتى يارو بين راكبي الدراجات البخارية في موكب الاول من ايار . يربط شريطاً أحمر حول اطارات دراجته . ولم يتركه هناك . فقد حمله معه . لا يدري بالضبط أين . ولكنه كان في مكان ما من اعماقه . حين ذهب يتدرب في ورشة الخراطة . في اول عمل حصل عليه في مصانع شكودا .

الأزمة . البطالة . الحرب ، الأمل بالحصول على عمل . الخدمة في الشرطة . لا أدري بأي شكل كان الشريط الأحمر يعمل في داخله آنذاك . ربما كان مطوياً في مكان ما . موضوعاً على الرف او ربما كان حتى نصف منسي . لكنه لم يضع . ذات يوم جاءوا به للخدمة في بانكراك . وهو لم يأت من تلقاء نفسه . مثل كولينسكي . وقد صمم على القيام بمهمة ما سلفاً . لكنه سرعان ما أدرك مهمته منذ اول وهلة اطل فيها داخل زنزانة . لقد انفتح الشريط في اعماقه .

يفتش الميدان ، بقدر قواه ، وقد ارتسمت على قسماته المدهمة امارات التفكير العنيد بالمكان الذي ينطلق منه في عمله وافضل سبيل لذلك . انه ليس سياسياً . فهو واحد من ابناء الشعب البسطاء . لكنه يملك خبرة والده . يملك نواة صلبة يراكم حولها اصراره . فيقرر . ومن الشرنقة الغائمة ينفلق كائن انساني .

وهو انسان رائع من الداخل ، ذو نقاء نادر أحساسي . خجول . ولكنه رجولي في الوقت ذاته ، ينفذ كل ما هو ضرورة . مهما كانت المخاطر التي ينطوي عليها . الاشياء الصغيرة والكبيرة مهمة على حد سواء . وهو ينفذ المهمات الصغيرة والمهات الكبيرة ويعمل بتكتم وهدوء وحكمة . ولكن من دون وجل . وهو يؤدي ذلك على نحو طبيعي ، بفضل روح المبادءة النموذجية التي يتحلى بها . ولابد ان الأمر كذلك حقاً – اذن فما جدوى الكلام عنه ؟

هذا هو في الواقع كل شيء . هذه هي القصة الكاملة لأحد البشر ممن يستطيع اليوم ان يفخر بانه انقذ العديد من الحيوات الانسانية . وهؤلاء الناس يعيشون ويعملون خارج السجن لأن انسانا واحداً في بانكراك نفذ واجبه ككائن بشري . انهم لا يعرفونه وهو لا يعرفهم . تماماً مثلما لا يعرفون كولينسكي . وأود انا ان يعرفوا بعضهم البعض فيما بعد على

الأقل . لقد وجد هذان الاثنان هنا الطريق الى احدهما الآخر بسرعة . وضاعف هذا من منفعتهما . تذكروهم كقدوة ، قدوة للكائن الانساني الذي يضع فكرة واولاً وقبل كل شيء ضميره ، في الموضع الصحيح .

الأب سكوربيا

لو صادفتهم ثلاثتهم معاً ، لرأيت صورة حية للأخوة : البزة الرمادية – الحديدية لسجان الأس – اس – كولينسكي ، بزة الشرطي التشيكي الغامقة – هورا والبزة الفاتحة والمقبضة معاً لسجين الخدمة الأب سكوربيا . لكنك لا تراهم معاً الا نادراً ، نادراً جداً ، لنفس السبب الوجيه وهو ان الواحد ملك للآخر .

تسمح انظمة السجن (فقط للسجناء الموثوق بهم ، ذوي الانضباط ، المنعزلين عن الآخرين تماما) بالعمل في الممرات ، في ادامة نظافة المكان وتوزيع الطعام .

هذا هو نص القانون ، نص ميت ، مجهض ويرثى له ، ذلك ان سجناء خدمة من هذا النوع غير موجودين ولم يوجدوا ابداً وخاصة في سجون الجستابو . وعلى العكس ، فأن سجناء الخدمة هنا هم مجسات تمدها من الزنزانات منظمة السجن لتضعها قريباً من العالم خارج السجن وتمكنها ان تعيش وتتصل بمن هم على صلة بها في الخارج . وما اكثر سجناء الخدمة الذين دفعوا حياتهم ثمناً لتعليمات تم كشفها او رسالة سرية ضبطت لديهم . لكن قانون الحياة الجماعية للسجن لا يتساهل ازاء اولئك الذين تطلب منهم مواصلة عمل الذين سقطوا رغم المخاطر التي تحيق به . عليك اما ان تندفع بجرأة او تتردد وجلاً – ولكنك في الحالتين معاً لن تفلت منها . بوسعك فقط ان تفسد الكثير جراء الخوف وقد تخسر حتى كل شيء ، تماماً كما في كل اشكال العمل السري .

وهذا ايضا عمل سري مرفوع الى اقصى درجات الخطورة : فهو بين ايدي من يريدون تدميره مباشرة وأمام اعين السجانين ، في المكان الذي يحددونه . في اللحظات التي يختارونها وفي الظروف التي يخلقونها . وكل ما تعلمته خارج السجن ، ضئيل القيمة هنا . وان كان لا يتطلب منك اقل منه .

هناك اساتذة في العمل السري خارج السجن . وهناك اساتذة في العمل نفسه بين سجناء الخدمة . ان الأب سكوربيا استاذ من هذا النوع . متواضع ، بسيط ، هادئ المظهر ،

لكنه حرك مثل سمكة . السجانون يثنون عليه : انظروا اليه كيف يتفصد عرقاً . اي رجل امين هو ، ينصرف الى اداء واجباته لا غير ولا تسول له نفسه القيام بما هو ممنوع . على سجناء الخدمة ان يتخذونه قدوة !

اجل ، على سجناء الخدمة ان يتخذونه قدوة ! انه قدوة حقاً لسجين الخدمة بالمعنى الذي يفهمه السجين . انه أجرء محس في منظمة السجن وأرهفها .

انه يعرف نزلاء الزنزانات ، كل نزيل جديد ، من اول وهلة ، سبب وجوده هنا ، بمن يتصل ، طباعه وطباع من يسكن بينهم . وهو يدرس (الحالات) ويحاول الكشف عن اسرارها . وهذا مهم اذا كان عليه ان يقدم المشورة وينقل الرسائل دون خطأ .

انه يعرف العدو ويراقب بانتباه كل سجان ، اطواره ، جوانب الضعف والقوة فيه ، من اي ناحية ينبغي الحذر منه بصورة خاصة ، كيف يمكن الانتفاع منه ، كيف يمكن تحذير يقظته وتضليله . ان الكثير من التشخيصات المتميزة التي كتبتها انما كان الاب سكوربيا هو الذي ابداها في الأصل . فهو يعرف الجميع هنا وبوسعه ان يرسم تخطيطا لشخصية كل واحد منهم على حدة . وهذا مهم اذا كان عليه ان يؤمن لنفسه حرية التحرك في الممرات والمقدرة المضمونة على العمل بكفاءة .

وهو قبل كل شيء يعرف واجبه . انه شيوعي يدرك انه لا يوجد هناك مكان يمكن فيه له ان يكف عن كونه شيوعياً ، بطوي ذراعيه و (يتوقف عن العمل) .

وبوسعي حتى ان اقول انه هنا ، حيث الخطر في ذروته والاضطهاد في ذروته ، وجد مكانه الحقيقي . هنا تطور حد النضج .

وهو مرن . ففي كل يوم وكل ساعة تنشأ اوضاع جديدة ، تتطلب اساليب جديدة . وهو يجدها بذكاء وسرعة ، وليس امامه الا ثوان معدودات . وهو يطرق باب الزنزانة ، يصغي الى رسالة معدة ثم يوصلها بدقة ووضوح الى الطرف الآخر من الممر . قبل ان تنزل دورية اخرى من الأعلى الى الطابق الأول . انه حذر ، يتمتع بحضور بديهة لا نضير لها . لقد مرت من يديه مئات الرسائل السرية ، ثم لم تكتشف واحدة منها ، ولا اثارت حتى اي شك .

وهو يعرف اين وكيف تدوس الجزمة واين ينبغي بث العزيمة ، ومتى يجب تقديم تقرير

دقيق عن الوضع خارج الزنزانات ومتى تستطيع نظرته الابوية الصادقة ان تمنح القوة انساناً يوشك ان ينهار من اليأس واين يمكن بقليل من الخبز الاضافي او مغرفة لحساء ان توقف الوضع الصعب تماما لـ (مجاعة السجن) وهو يعرف هذا ويدركه برهافة حسه الرائعة وخبرته العميقة ويتصرف على هدى ذلك .

انه مناضل قوي لا يعرف الوجل . انسان لا تشوبه شائبة . هذا هو الأب سكوربيا . أود منك يامن ستقرأ هذا ذات يوم . ان ترى فيه لا الأب سكوربيا وحده . بل ذلك النموذج الرائع كله لسجناء الخدمة الذي كان قادراً على تحويل العمل . الذي كان المضطهدون يرغمون عليه من اجل مصالحهم . الى مصلحة المضطهدين (بفتح الهاء) كلية . ان الأب سكوربيا رجل متفرد . لكن نموذجه موجود عند مختلف الناس . بشر ذوو خصائص بشرية متباينة . لكنها لا تقل عظمة عن ذلك . في بانكراك و قصر بيتشيك على حد سواء . بودي لو رسمت لوحاتهم العديدة . لكن وأسفاه . فلم يبق امامي الا ساعات قليلة . قليلة . لا تكفي حتى (للأغنية التي انشدت باقتضاب وجيز رغم حياتنا التي نحياها طويلا) . على الأقل . اذن . قليل من الاسماء . وبعض الأمثلة وهي أبعد من أن تكون . بالتأكيد . كل من ينبغي علينا ان نتذكرهم :

الدكتور ميلوش نيدفيد . انسان رائع . نبيل . دفع حياته ثمناً في اوشفيتز للعون الذي كان يقدمه لرفاقه السجناء يومياً .

ارنوست لورنتز . الذي اعدمت زوجته لانه رفض ان يخون رفاقه والذي اعدم ايضاً بعد عام واحد . وضحى بنفسه من اجل ان ينقذ رفاقه المناضلين في غرفة ٤٠٠ والمنظمة كلها .

فاسيك الرائع . ذو البديهة الحاضرة الذي لا يغلب وآنكا فيكوفا الانطوائية . المفعمة بنكران الذات والتي اعدمت اثناء الاحكام العرفية الممتلئ حيوية . سبرنغر «امين المكتبة» الدائم المرح . الحاذق . ذي العقل الذي لا يكل في ابتكار اساليب جديدة . وبيليك الفتى الرقيق . .

مجرد امثلة . مجرد امثلة لاشخاص بهذا القدر او ذاك . لكنهم اشخاص على الدوام . لا مجرد أشكال .

الفصل الثامن

شيء من التاريخ

٩ حزيران ١٩٤٣

امام زنزانتي يتدلى حزام . حزامي . اشارة الرحيل . الليلة ينقلوني الى الرايخ لمحاكمتي وما اشبه . ان الزمن ينهش بجوع كاسر آخر شريحة من حياتي القصيرة . لقد مضت اربعمائة واحد عشر يوما في بانكراك بسرعة غير مفهومة . كم من الايام بقيت لي؟ واين؟ واي منها بقت؟

لن تتاح لي الفرصة بعد للكتابة . وهكذا اذن . فهذه آخر افادة ادلي بها . شيء من التاريخ . لا ريب اني شاهد العيان الأخير عليه .

في شباط ١٩٤١ . اعتقلت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي كلها . بما في ذلك القيادة الاحتياطية التي اعدت لمثل هذه اللحظات الشريرة . وحتى الآن لم يتضح تماما كيف امكن ان تنزل مثل هذه الضربة القاسية المروعة بالحزب . ربما سيسلط ضباط الجستابو ذات يوم الضوء على هذه المسألة عندما يجري التحقيق معهم في المستقبل . وقد ذهبت كل جهودي لمعرفة حقيقة الأمر ادراج الرياح . حتى عندما كنت واحداً من سجناء الخدمة . ان جانباً من القضية لابد ان يكون ذا علاقة بالتخريب ولكن لابد ان يكون ضعف اليقظة الجانب الآخر لها . عامان من العمل السري الناجح خدرا الرفاق لحدما وأضعفا يقظتهم . لقد نمت الحركة السرية واتسعت وانضم اليها دون انقطاع رفاق جدد . وبضمنهم اولئك الذين كان ينبغي ابقاؤهم بعيدين والاستفادة منهم في اغراض أخرى وتضخم الجهاز الحزبي وتعقد بدرجة كبيرة بحيث لم يعد بالامكان السيطرة عليه . ولقد أصبح واضحاً ان الضربة التي نزلت بقيادة الحزب قد تم التحضير لها منذ وقت بعيد وجاءت في لحظة كان فيه كل شيء قد اعد للهجوم على الاتحاد السوفياتي . في البداية لم اعلم بالمدى الكامل للاعتقالات التي جرت . وبقيت بانتظار الاتصال المعتاد . ولكن هيهات . وبعد شهر فقط اتضح ان امراً جللاً قد وقع وان علي ان لا اكتفي بالانتظار وحده . وبحثت بنفسي عن صلة . كما بحث عنها آخرون . وكان اول شخص عثرت عليه

هو هونزا فيسكوسيل . مسؤول منظمة منطقة بوهيميا الوسطى . كان رجلاً يمتاز بروح المبادرة وقد اعد بعض المواد للنشر في (رودي برافو) حتى لا يبقى الحزب بدون جريدته المركزية . وكتبت انا المقال الافتتاحي وكما اتفقنا على نشر المواد (التي لم أرها) كجريدة بمناسبة آيار وليس بمثابة عدد من اعداد (رودي برافو) . بسبب ان هذه الأخيرة كانت قد صدرت بالفعل في طبعة طارئة .

ومن ثم بدأت شهور من عمل الانصار . واذا كان الحزب قد تعرض الى ضربة قاسية ، فانها لم تستطع ان تقتله . وأخذ مئات الرفاق الجدد على عاتقهم المهمات المتبقية وتوافد رجال ونساء جدد عازمين على ملئ الاماكن الشاغرة التي تركها القادة الذين وقعوا في قبضة العدو ولم يسمحوا لأسس المنظمة ان تنهار او تغرق في السلبية . ومع هذا فقد بقي مركز الحزب مفقوداً . وخلال عمل الانصار ، كان الخطر الداهم هو ان لا تتوفر في اللحظة الحاسمة – لحظة الهجوم المتوقع على الاتحاد السوفياتي – وحدة كاملة في العمل . وفي (رودي برافو) – التي كانت ما تزال تصدر على اساس عمل الانصار والتي اصبحت مسؤولاً عنها – تعرفت على مساعد سياسي متمرس . ففي العدد الخاص الذي اصدرناه بمناسبة الاول من ايار ، والذي لم يكن لسوء الحظ بالجودة التي كنا نتوقعها ، رأى آخرون انه كان هناك صوت شخص يمكن الاعتماد عليه ، يجيب علينا . بدأنا نبحث عن احدنا الآخر . وكان بحثاً في غابة عميقة . كنا نسمع صوتا ما ، فنسعى خلفه – ومن ثم نسمعه يتردد في الجانب المعاكس تماماً . لقد اصبح الحزب ، بعد الخسارة الجسيمة التي نزلت به ، اكثر حذراً ويقظة . واذا كان هناك شخصان في الجهاز المركزي يريدان ان يتصلا ببعضهما ، فان عليهما ان يشقا طريقهما عبر دغل من الصعوبات والاختبارات التجريبية التي يضعها احدهما بوجه الآخر والموضوعة بالطبع من قبل آخرين ممن يذودون عن اتصالاتهم . لقد كان كل شئ معقداً لدرجة اني لم اعرف من كان الشخص الذي في الجانب الآخر ، ونفس الشئ بالنسبة له ، لانه لم يكن يدري من هو الذي يبحث عنه . واكتشفنا اخيراً قاسماً مشتركاً – رجل رائع هو الدكتور ميلوش نيدفيد ، الذي أمن اول اتصال لنا . وساعد على هذا شئ من الحظ ايضاً . ففي منتصف حزيران ١٩٤١ ، تمرضت فارسلت ليدا لتطلب منه القدوم لمعالجتي . جاء على الفور الى شقة آل باكس – وهناك وضحت الامور . فقد طلب منه هو ايضا البحث عن (الآخر) . ولكن لم تكن

لديه ادنى فكرة انه انما كنت انا بالذات . وبالعكس ، فقد كان مثل بقية الآخرين في الجانب الآخر ، مقتنعاً بانني معتقل وزيما كنت قد مت بالفعل .

في ٢٢ حزيران ١٩٤١ ، قام هتلر بغزو الاتحاد السوفياتي . وفي نفس الامسية ، اصدرنا ، فيسكوسيل وانا ، بياناً عن مغزى هذا الحدث بالنسبة لنا . وفي ٣٠ حزيران ، جرى اول لقاء لي بالرجل الذي كنت ابحث عنه منذ فترة طويلة . قدم الى الشقة التي حددتها اذ كان يعرف بمن سيلتقي . اما انا فلم اكن اعرف ذلك بعد . كانت ليلة من ليالي الصيف . وخلال النافذة المشرعة كان عبير السنط يتسلل الى المكان . لقد كانت لحظة مناسبة للقاء عاشقين . عتمنا النافذة واشعلنا النور وتعانقنا . لقد كان هونزا زيكا . اذن ، فبعد كل الذي حدث ، لم يعتقل جميع اعضاء اللجنة المركزية في شباط ١٩٤١ . كان زيكا العضو الوحيد الذي افلت من ذلك . لقد عرفته فترة طويلة وكنت مولعاً به منذ امد بعيد . رجل بدين ، قصير ، دائم الابتسام فيه شئ من روح العمومة الدائمة – وهو صلب ، لا يساوم ، حازم و حاسم في العمل الحزبي . وبالنسبة له لم يكن يعرف او يرغب ان يعرف اي شئ خارج واجبه . وكان على استعداد لبذل اي شئ في سبيل تنفيذ هذا الواجب . كان يحب الناس ومحبوباً منهم ، لكنه لم يشتر محبتهم ابداً بالتغاضي عن اخطائهم .

وتوصلنا الى التفاهم في دقائق معدودات . وبعد ايام قلائل ، عرفت العضو الثالث في القيادة الجديدة ، الذي كان على اتصال بزيكا منذ آيار : هونزا تشيرني . رجل وسيم ، طويل القامة ، رائع في علاقته بالناس ، قاتل في اسبانيا ثم عاد عبر المانيا النازية خلال الحرب وقد استقرت في رئته رصاصة – كان فيه على الدوام شئ من الجندي مع خبرة غنية بالعمل السري ، موهوب وذو قدرة لا تنضب على المبادرة .

وربطتنا شهور من النضال الشاق بروح رفاقية مدهشة . ثلاثتنا معا . يكمل الواحد منا الآخر بخصائصنا وقدراتنا . زيكا – المنظم ، ذو الروح العملية ، المدقق في اهتمامه بالتفاصيل والذي لا يسمح لنفسه ان يضلله الاسهاب ، يتعمق في كل خبر صغير حتى يكشف معناه الحقيقي ، يفحص كل اقتراح من جميع جوانبه . رقيق القلب ولكنه حازم في متابعة تنفيذ كل قرار . وتشيرين – مسؤول التخريب والاعداد للمقاومة المسلحة ، يفكر بلغة عسكرية ، مبتكر ، جريئ في خططه ، يفيض حيوية ، لا يكل ، سعيد في

البحث عن اساليب جديدة واناس جدد . وانا – المحرض الدعائي . الصحفي . المعتمد على حاستي الفطرية . حالماً لحد ما مع روح الانتقادية من أجل التوازن .

لقد كان توزيع المهمات بالطبع توزيعاً للمسؤوليات اكثر منه توزيعاً للعمل . فقد كان على كل منا ان يهتم بكل شيء وان يعتمد على مبادرته الخاصة وحيثما كانت الحاجة تستدعي ذلك . لم يكن عملاً سهلاً . ان الجرح الذي نزل بالحزب في شباط لم يلتئم بعد كلياً . لقد مزقت المنظمات شر تمزيق . وفي اماكن معينة وقعت قطاعات بأكملها وفي اخرى سلمت قطاعات باكملها ولكن لم يكن هناك من سبيل للوصول اليها – منظمات برمتها . معامل برمتها وحتى مناطق برمتها . ظلت معزولة لشهور قبل ان يعاد الاتصال بها وكان علينا ان نعتمد على الجريدة المركزية . تصل اليهم ونوصل اليهم عبرها التوجيهات العامة . ولم تكن هناك شقق متوفرة – وما عاد بوسعنا استخدام الشقق السابقة التي ربما كانت مخطوره بعدها . وباختصار . لم يكن لدينا مال وكانت الصعوبات تتفاقم في تأمين الطعام لمناضلي العمل السري وكانت هناك اشياء كثيرة ينبغي البدء بها من الأول . . . وكل هذا في وقت لم يكن بوسع الحزب ان يقتصر فيه على اعادة بناء نفسه والاستعداد فقط . بل في وقت كان على الحزب ان يلعب فيه دوراً مباشراً في النضال وينظم الجبهة الداخلية ضد المحتلين ويقود حرباً مصغرة ضدهم . لا بمجرد قواه الخاصة . بل بقوى الشعب كله . في سنوات الاعداد ، ١٩٣٩ – ١٩٤١ ، كان الحزب يعمل بسرية تامة ، مختفياً لا عن اعين الشرطة الالمانية وحسب ، بل عن الشعب كذلك . اما الآن ، فبعد خسائره الفادحة ، كان على الحزب ان يقوي صفوفه ويستكمل عمله السري ضد المحتلين . ولكن في ذات الوقت الذي كان عليه ان يخرج الى الشعب ، كان عليه ان يقيم الصلات بالناس اللاحزبيين ، ان يتوجه الى الشعب كله ، يفاوض كل من كان مصمماً على النضال في سبيل الحرية ويجر الى النضال من كان متردداً بعد من اجل ان يلعب الجميع دوراً نشيطاً في هذه المعركة الحاسمة .

في مطلع ايلول ١٩٤١ ، اصبح بأمكاننا القول باننا لم نعد ترميم العديد من المنظمات المتضررة بشدة – وأسفاه ! فقد كان هذا أمراً متعذراً حينها – انما اصبح لدينا مرة اخرى نواة منظمة على اساس صلب ، قادرة جزئياً على الأقل ان تنفذ المهمات الكبرى لوحدها . وظهر على الفور تأثير الحزب . واشتدت التخريبات والاضرابات في المصانع

وما ان حلت نهاية ايلول حتى نصبوا هيدريش علينا .

ولم تستطع الفترة الأولى من الاحكام العرفية ان تحطم المقاومة المتصاعدة ، ولكنها ابطأت منها وانزلت بالحزب ضربات جديدة . وقد اصيبت في الواقع منظمة براغ ومنظمة الشبيبة . وسقط مناضلون جدد وكانوا ذوي قيمة لا تقدر للحزب : يان كريشي ، ستانسل ، ميلوش كراشي وكثيرون غيرهم .

ولكن بعد كل ضربة كنا نرى ثانية كيف يستحيل القضاء على الحزب . مناضل يسقط – واذا لم يكن بالامكان ان يحل آخر محله ، فان اثنين او ثلاثة يأخذون مكانه . وعلى اعتاب العام الجديد كانت منظماتنا قد بنيت بناء متماسكاً ، رغم انها لم تغطي كل شيء وما زالت بعيدة ان تصل الى نفس السعة التي كانت عليها في شباط ١٩٤١ . ولكنها كانت برغم ذلك قادرة على تنفيذ مهمات الحزب في المعارك الحاسمة . وقسم العمل بيننا جميعاً . ومع هذا ، فأن شرف هذا ليعود اولاً وقبل كل شيء الى هونزا زيكا .

لا حاجة بي للحديث عما فعلته الصحافة فهناك ما يكفي للتدليل على هذا في الغرف العليا والسراديب وفي الارشيفات السرية للرفاق .

وكانت جريدتنا توزع على نطاق واسع ولم تكن تقرأ في الحزب وحده . بل خارج الحزب كذلك . وكانت تصدر بطبعات عديدة من (الورشات) السرية المستقلة الكثيرة العدد (على آلات استنساخ) . وكانت هذه الطبعات منفصلة الواحدة عن الأخرى وكان بعضها يصدر مطبوعاً . وكانت الاعداد توزع بانتظام وسرعة ، مثلما كان الوضع يتطلب ذلك . وعلى سبيل المثال ، فقد وصل الأمر العسكري للرفيق ستالين الصادر يوم ٢٣ شباط ١٩٤٢ الى قرائنا مساء ٢٤ شباط . وقام الطباعون بعمل ممتاز وكذلك (ورشة) الاطباء وبصفة خاصة (ورشة فوخس – لوريتز) التي كانت تصدر ايضاً صحيفتها الاخبارية الخاصة (العالم ضد هتلر) . وكنت انا اتولى جميع الشؤون الأخرى بنفسي لاتفادي تعريض المزيد من الكوادر الى الخطر . وكان هناك بديل حاضر ليأخذ محلي في حالة اعتقالي . وقد شرع بالعمل عند اعتقالي وما زال يعمل حتى اليوم .

وكان الجهاز الذي بنيناه من ابسط ما يكون ، لكي يتم تشغيل اقل عدد ممكن من الأشخاص في المهمة الواحدة . وكسرنا السلسلة التنظيمية الطويلة التي كانت ، كما برهنت على ذلك تجربة شباط ١٩٤١ ، خطراً على الجهاز الحزبي لا حماية له . صحيح ان هذا

يعني خطراً اكبر لكل واحد منا على انفراد . لكنه كان اكثر سلامة للحزب . اذ سوف لن يكون هناك تكرار لتلك الكارثة التي انقضت على الحزب في شباط .
وبسبب ذلك كانت اللجنة المركزية ، التي اكتملت بعضو جديد ، قادرة بهدوء على مواصلة عملها بعد القاء القبض علي . ولم تكن حتى لأقرب رفاقي في التنظيم ادنى فكرة عن ذلك .
اعتقل هونزا زيكا ليلة ٢٧ أيار ١٩٤٢ . ومرة اخرى كانت الصدفة السيئة هي السبب لا غير . وكان ذلك في الليلة التي تلت محاولة اغتيال هيدريش ، حين انطلق كامل جهاز المحتلين من عقاله و حوصر الناس في كل مكان من براغ . واقتحم الجستابو الشقة التي كان يختفي فيها زيكا في ستربسوفنش آنذاك . كانت اوراقه لا غبار عليها وكان من الممكن ان يفلت من قبضتهم بالتأكيد . ولكنه لم يكن راغباً في تعريض عائلة طيبة الى الخطر فحاول ان يهرب من احدى نوافذ الطابق الثاني . الا انه سقط اثناء محاولته واقتيد الى مستشفى السجن وهو مصاب اصابة خطيرة في عموده الفقري . ولم تكن لديهم اية فكرة عن هوية الشخص الذي وقع في قبضتهم . الا بعد ١٨ يوماً . حيث استطاعوا ان يشخصوه عن طريق مقارنة الصور الفوتوغرافية . واقتادوا الرجل المحتضر الى قصر بيتشيك للتحقيق وهنا تقابلنا معاً لآخر مرة . عندما واجهونا الواحد بالآخر . تصافحنا ، وابتسم لي ابتسامته العريضة ، الحبيبه وقال :
– وداعاً يا يوليوس !
وكان ذلك كل ما سمعوه منه . لم ينطق بكلمة واحدة اخرى ابداً . وبعد ان ضربوه قليلاً غاب عن الوعي وفي غضون ساعات قليلة فارق الحياة . لقد علمت باعتقاله حوالي ٢٩ آيار . وقد عملت المحسات جيداً . وبفضلهم تقريباً توصلت الى اتفاق معه بما ينبغي علي ان افعله . وبعدئذ حضي هذا بالموافقة التامة لهونزا تشيرين . وكان هذا آخر قرار لنا .
– وفي صيف ١٩٤٢ اعتقل هونزا تشيرني . ولم يكن هذا نتيجة الصدفة ، بل بسبب التسيب الصارخ من جانب يان بوكورني الذي كان على اتصال به . ولم يتصرف بوكورني كما ينبغي على كادر قيادي . وبعد ساعات قلائل من التحقيق بالتأكيد تحقيق مريع . ولكن ماذا كان يتوقع ؟ – بعد ساعات من التعذيب انهار واعترف على الشقة التي كان

يلتقي فيها بتشيرني . ومن هناك قاد الاثر الى هونزا الذي وقع في قبضة الجستابو بعد ايام قلائل .
وتمت مواجهتنا الواحد بالآخر ، حال القاء القبض عليه .
– هل تعرفه ؟
– كلا .
لقد نطقنا معا بالرد نفسه . وبعدها رفض ان ينطق بكلمة واحدة . وانقذه جرحه القديم من التعذيب الطويل ، اذ غاب عن الوعي سريعاً وقبل ان يعاد الى التحقيق ثانية ، كانت معلومات دقيقة قد اوصلت اليه فاتخذ الاحتياطات الضرورية .
ولم يحصلوا على اي شيء منه . وابقوه رهن الاعتقال وانتظروا طويلاً على أمل ان يتوفر دليل جديد يرغمه على الكلام . ولكن هيهات .
ولم يبدل السجن اي شيء فيه : انيق جذل ومقدام ، كان يدل الاحياء على آفاق جديدة ، رغم انه نفسه لم يكن ينتظر الا الموت .
نقلوه من بانكراك فجأة نهاية نيسان ١٩٤٣ الى مكان اجهله . هذه الطريقة المباغتة التي كان الناس يختفون بها دوماً تنطوي على شيء من الشؤم . قد اكون على خطأ . لكني لا احسب اننا سنرى بعضنا ثانية ابداً .
لقد حسبنا حساب الموت دوماً . وقد كنا نعرف دوماً : اننا حين نقع في قبضة الجستابو ، فمعنى ذلك ان النهاية حانت . وقد حكم هذا كل تصرفاتنا ، حتى هنا .

اقترب دوري من نهايته . هذه النهاية التي لم اكتبها بعد . وهو أمر لا أعرفه بعد . فهو لم يعد دوراً . بل الحياة .
وفي الحياة ليس هناك متفرجون .
الستارة تنسدل .
ايها الناس ، لقد احببتكم كونوا يقظين !

١٩٤٣/٦/٩

فهرس

تقديم
تنويه ٣
من جوستا فوتشيكوفا
ما كتب في سجن الجستابو ٤
بيانكراك ، ربيع ١٩٤٣
الفصل الأول ٥
اربع وعشرون ساعه
الفصل الثاني ١٢
احتضار
الفصل الثالث ٢٠
زنزانه ٢٦٧
الفصل الرابع ٢٨
غرفة اربعمائه
الفصل الخامس ٤٢
شخوص واشكال
الفصل السادس ٦٣
الاحكام العرفية ١٩٤٢
الفصل السابع ٦٩
شخوص واشكال
بانكراك
الفصل الثامن ٨٩
شيء من التاريخ

انا من جعلت من الكيس وشاحا
ومن القيد وساما
ومن الزنزانة عرينا للاسود

وذلك لكي نحقق الحرية الوحيدة الجدية بهذا الاسم:
حرية البشرية كلها.
فحرية قليل من الافراد – حرية السرقة لفريق من الناس.
وحرية الموت جوعا للاخرين ليست حرية بل انها على العكس اذلال للجميع

يوليوس فوتشيك

http://www.pflp.ps
http://www.pslf.org